العودة إلى جوبال

قصص

سعيد رفيع



2006

العودة إلى جوبال



الإشراف العام:

محمد الحسيني

المراسلات:

٢١ ش الصناديلى بالجيزة

١٧ ش العطار بالجيزة

تليفون: ٥٧١٢٦١٨

موبايل: ٠١٠٢٣١٣٥٧٩

الموقع الإلكترونى:
www.dar-nevro.i8.com

البريد الإلكترونى:
dar_nevro@hotmail.com

جمهورية مصر العربية

اسم الكتاب: العودة إلى جوبال

مجموعة قصصية

اسم المؤلف: سعيد رفيع

رقم الإيداع: ٣٧١٦ / ٢٠٠٦

تصميم الغلاف: كامل جرافيك

جمع إلكترونى: حسام الدين سعد الدين

الطبعة الأولى

٢٠٠٦

العودة إلى جوبال

في الجلسات التسع الأولى كانت الشيخة حليمة تنفرد بسلمان في غرفة مغلقــة.. ولــم تكــن لدينا أدنى فكرة عما يدور بداخلها، حيث كانت الشيخة تحظــر علينا مجرد الاقتراب من بابها، كانت الجلسة تستغرق ما بين أربعين وســتين دقــيقة تقريــباً، تخــرج بعدها الشيخة، ثم تشير إلينا بأن نصطحبه ونــرحل بــه، على أن نعود إليها في موعد لاحق تحدده لنا بالساعة واليوم والشهر.

أمــا الجلســة العاشــرة والأخيرة فقد استغرقت أقل من نصف ساعة، خرجــت بعدهــا الشــيخة لتخبرنا بأنه لم يعد في مقدورها أن تصنع المزيد، واســتطردت قائلــة أنها مخولة فقط بالتعامل مع الجان والشياطين من سكان العوالــم الأرضــية، أمــا الجان من سكان العوالم البحرية فهناك من هو أقدر منها على استدعائهم والتعامل معهم، وكانت كلمتها الأخيرة لنا وهي تودعنا: (عليكم بالشيخ براك.. فالبر لي.. والبحر له).

* * *

سقط سلمان مريضاً منذ ستة أشهر تقريباً، إثر عودته من رحلة صيد، قــام بهــا منفرداً إلى المصايد المحيطة بجزيرة جوبال، وكان رزقه وفيراً في ذلــك الــيوم، وبمجرد وصوله لمرسى القوارب، المقابل للنجع، أفرغ حمولة القــارب مــن الأســماك، وباعها على الفور لأحد تجار الأسماك، ممن كانوا ينتظرون وصول الصيادين إلى المرسى.

في ذلك اليوم كان الشيخ براك يقف على الشاطئ كعادته، وعندما ألقى سلمان بمرساته، خاض الشيخ بضعة أمتار في الماء حتى وصل إلى القارب، وبعـد أن هنأ سلمان بسلامة العودة، بادره قائلاً أنه يعلم أن من بين الأسماك التـي صيدت، سمكة دراك كبيرة، وأنه، أي الشيخ، يريد من سلمان أن يلقي بهذه السمكة مرة أخرى إلى البحر.

ولأن سـمكة الدراك تعد صيداً ثميناً، فإن سلمان أظهر استياء من طلب الشـيخ، ورغم أنه أصيب بدهشة لأن الشيخ كان يعرف أن هناك سمكة دراك بيـن أنـواع الأسماك العديدة التي صادها في ذلك اليوم، إلا أنه ركب رأسه، ورفـض أن يسـتجيب لرغـبة الشيخ، بل وأصر على أن يبيع السمكة ضمن الأسـماك التـي باعها للتاجر، ثم غير رأيه، وقرر أن يحتفظ بالسمكة لنفسه، لتكون على مائدة غدائه في ذلك اليوم.

بعـد غداء ذلك اليوم مباشرة سقط سلمان مغشياً عليه، فحمل من فوره إلى المستشفى، حيث بادره الأطباء بالأدوية والعقاقير حتى أفاق من غيبوبته، فأعـيد لبيته، ولكن لم يكد يخطو أولى خطواته داخل المنزل حتى انتابته حالة مـن الهياج، جرى على أثرها إلى البحر، وألقى بنفسه بين الأمواج، فانطلق علـى أثـره عـدد كبير من الجيران، حيث اقتادوه إلى البيت، واضطروا إلى ربطـه فـي سريره، ثم استدعوا كل من يعرفون من الأطباء، طبيباً إثر آخر، فكـان الأطـباء يعالجونه بأدوية مهدئة ومنومة، لا يكاد أن يخفت أثرها حتى تعاوده حالة الهياج بدرجة أسوأ من سابقتها.

تدهورت حالة سلمان سريعاً بعد ذلك، واعترف الأطباء بأنه ليس لديهم دواء ناجعـاً لمـثل حالـته، ونصـح البعض بأن يعرض سلمان على أطباء

العاصـــمة، ولكـــن أطـــباء العاصـــمة لم يكونوا أوفر حظاً من أطباء البلد، إذ اســـتمرت نوبـــات الإغمـــاء التي تنتاب سلمان، والتي تعقبها في العادة نوبة هياج، ترافقها رغبة عارمة في الانطلاق صوب البحر.

ولمـــا كـــان اســـتمرار الحال على ما هو عليه لا يعني بالنسبة لسلمان ســـوى المـــوت المؤكد، فقد حمل سلمان إلى الشيخة حليمة، باعتبارها الأمل الوحـــيد الباقـــي، بعد أن أقر جميع الأطباء بإخفاقهم في علاج حالته، التي لم يروا لها مثيلاً من قبل.

* * *

يقع نجع الصيادين على الساحل مباشرة أمام مرسى القوارب، مجموعة مـــتجاورة مـــن البـــيوت ، مبنية في غالبها من كتل غير منتظمة من أحجار الجير، وسقوفها مغطاة بألواح من الصاج أو الإسبستوس، والبيوت متشابهة إلى حد كبير، بيت واحد منها يبدو مختلفاً، وهو بيت الشيخ براك، فالبيت هو مجرد كوخ شيد من خليط من أحجار الجير والبوص وألواح الخشب والصفيح بل وجزوع أشجار المانجروف.

يقـــوم الكوخ في الجهة الشمالية من النجع، ويبدو منعزلاً ومتطرفاً عن بقـــية البـــيوت، والكـــوخ أقرب البيوت جميعاً من البحر، فحده الشرقي يكاد يلامـــس الأمـــواج، بل أن الأمواج كثيراً ما تخترق الكوخ بالكامل عندما يبلغ المـــد ذروتـــه، وهو أمر يراه الصيادون مثيراً للدهشة، ومثيراً للتساؤل عن الأســـباب التي تضطر رجلاً مسناً إلى السكنى في كوخ يبدو في أغلب الأوقات غارقاً في مياه البحر.

أمـــا عزلة البيت فلا تثير دهشة كبيرة بين الجيران، فالشيخ براك نفسه

رجـــل غريب عن أهل النجع، إذ هبط عليهم فجأة منذ خمسين أو ستين عاماً مضـــت، لا يعرف أحد من أي مكان جاء، مجرد رجل غريب وحيد، هبط فجأة ليقـــيم له كوخـــاً منعزلاً بما تيسر من الأشياء الملقاة على الساحل، ولم يجد بـــراك حيـــنذاك أي اعتراض من السكان على تشييد كوخه في هذا المكان، إذ كان الساحل بكراً وخالياً سوى من بضعة بيوت للصيادين.

بـــراك شيخ طاعن في العمر، يرتدي الثوب والطاقية على الدوام، صيفاً وشـــتاء، ولا أحد يعرف عمره على وجه اليقين، وهو شخصياً لم يفصح أبداً عـــن ذلـــك، ولا يوجد في هيئته أو مظهره ما يجعله مختلفاً عن بقية الشيوخ فـــي مـــثل عمـــره، الشـــعر الأشيب الذي يبدو على جانبي الطاقية، واللحية الشـــعثاء التـــي تـــتدلى إلـــى منتصف صدره، والأذنان الكبيرتان على جانبي الـــرأس، لا يوجد في هيئته ما يلفت النظر، ربما عيناه فقط هما اللتان تلفتان الانتـــباه بعض الشيء، نظراً لاتساعهما البالغ، ولحرص الشيخ على تكحيلهما على الدوام.

مـــا يثير الجدل في الشيخ براك هو سلوكه الذي يبدو عصياً على الفهم فـــي أغلـــب الأحيان، إذ يتردد بين الجيران أن الشيخ براك لم يمرض قط منذ عـــرفوه، فهو لم يزر طبيباً ولم يزره طبيب، بل أن الشيخ، كما يؤكد الجميع، لـــم يغادر النجع منذ أن حل به، فهو لم يشاهد قط في أي مكان آخر من البلد ســـوى النجع، حتى أنهم يتعجبون من أين يأتي الشيخ بطعامه وشرابه طالما أنه لا يتردد على الأسواق أو الدكاكين التي تقع جميعها بعيداً عن النجع.

أمـــا أكثر ما يثير الجدل والدهشة فهو حرص الشيخ براك على استقبال القوارب عند عودتها من الصيد ودخولها إلى المرسى، وفي كل مرة لا ينتظر

حـــتى يخـــرج الرجال بصيدهم من القوارب، بل يبادر هو بالخوض في الماء حـــتى يصل إلى المركب التي تقف على بعد عدة أمتار من الشاطئ، كان يبدأ بتـــبادل التحـــية مع الصيادين، ثم يلقي نظرة على الأسماك المكومة في بطن القارب، لا يفعل أكثر من ذلك، ثم يودع الرجال ويعود أدراجه إلى الشاطئ.

اعـــتاد الصيادون على هذا المسلك الغريب للشيخ، ومع تكراره أدركوا أن الشـــيخ لا يحفـــل سوى بنوع واحد فقط من الأسماك، وهو سمك الدراك، وبـــالذات الـــذي يتم صيده من نواحي جزيرة جوبال، وكان هذا يثير سخرية الـــبعض، حتى أن نفراً منهم كانوا يسخرون من اسمه، فيطلقون عليه الشيخ (دراك) بـــدلاً مـــن الشـــيخ (بـــراك)، إذ لا يكاد الشيخ يلمح سمكة واحدة من أســـماك الدراك في بطن القارب، حتى يسأل عن المكان الذي صيدت منه، فإن ذكـــروا له اسم جزيرة جوبال، فإنه يطلب من أحدهم أن يأتيه بها على الفور، ثـــم يـــبدأ في تفحصها، كأي طبيب يفحص مريضاً، يمسح جانبيها بكفه، يفتح فمهـــا ويلقي نظرة، يفتح الخياشيم على جانبي الرأس، ويلقي بنظرة على كل مـــنها، يضـــغط بإبهامه على بعض المواضع، وأخيراً يلقي بالسمكة في بطن القارب، ثم يمضي إلى حال سبيله.

وفـــي مـــرات كثيرة، كانت سمكة معينة من أسماك الدراك تثير اهتمام الشـــيخ أكـــثر مـــن غـــيرها، وكان يقضي وقتاً أطول في تفحصها، بل وفي الاســـتغراق فـــي شم رائحتها، وكان الصيادون يعرفون ما سيفعله الشيخ بعد ذلـــك، إذ اعتادوا أن يطلب منهم الشيخ في مثل هذه الحالة أن يلقوا بالسمكة إلـــى البحر مرة أخرى، حتى لو كانت ميتة، وكان الصيادون يستجيبون دائماً لرغبـــته، فيمســـك أحدهـــم بالسمكة ويلقي بها إلى أقصى مسافة ممكنة في

البحر، فيشكرهم الشيخ بإيماءة من رأسه، ثم ينصرف راضياً صوب الشاطئ، دون أن يسأله أحد سبباً لطلبه الغريب، ودون أن يخبرهم هو بأي مبرر.

* * *

لـــم يبد الشيخ براك اهتماماً كبيراً ونحن نقص عليه ما جرى لسلمان، فقـــد جـــرى لقاؤنـــا معـــه ســـريعاً عند مرسى القوارب، وكان واقفاً وعيناه مشدودتان إلى قارب صغير يقترب من المرسى، أصغى إلينا، ولكنه لم يسرف فـــي التعقيـــب علـــى ما سمعه منا، كما لم يعقب على ما أخبرتنا به الشيخة حليمة، كل ما قاله لنا أنه كان يعرف أننا سنأتي إليه، ثم اختتم تعقيبه القصير بقوله: "أتوني بسلمان عشية الخميس.. ودعوه لي حتى الصباح".

لم نشغل أنفسنا كثيراً بما قاله الشيخ، خاصة زعمه بأنه كان يعرف أننا ســـنأتي إلـــيه.. إذ كنا قد اعتدنا، مثل غيرنا من الجيران، على غرابة أطوار الـــرجل، وعقدنـــا العزم على أن نأتيه بسلمان عشية الخميس، وهو ما حدث بـــالفعل، إذ لـــم تكد تنتهي صلاة العشاء، حتى كنا قد أودعنا سلمان في كوخ الشيخ، في ذات الغرفة التي تغمرها المياه عند المد.

كانـــت الغـــرفة خالـــية تمامـــاً من الأثاث، ولم تكن تحوي أي نوع من الفـــراش، لم يكن هناك سوى الرمال المبتلة، التي تتناثر في أرجائها أعشاب القيصار وجحور الكابوريا، لذلك بادر أحدنا بخلع ثوبه ليفترشه سلمان، ولكن الشـــيخ نهـــاه عـــن ذلك، وأصر على أن يفترش سلمان الرمال المبتلة دون سواها.

قـــبل ضحى اليوم التالي كنا على عتبة الكوخ، وكان الباب مفتوحاً على مصـــراعيه ومع ذلك طرقنا عليه عدة مرات فلم نتلق جواباً، عندئذ لم نتردد

في الدخول، حيث وجدنا الغرفة على حالها، ولكن سلمان لم يكن هناك، وعندما لاحظنا أن هناك غرفة أخرى لصيقة، اتجهنا إليها، فإذا بحالها كحال الغرفة الأخرى تماماً، مجرد أرضية من الرمال المبتلة بماء البحر، ولا أثر لقطعة أثاث واحدة أو فراش من أي نوع، والأهم من ذلك كله أننا لم نجد أثراً للشيخ بسراك أو سلمان، فهرعنا إلى الخارج، وراحت أعيننا تمسح الشاطئ بحثاً عن أي منهما، فلم يقع نظرنا سوى على رجل واحد، مجرد رجل يجلس قبالة المرسى ويولينا ظهره، وبدا لنا من بعيد شبيهاً بسلمان، فهرولنا حتى دنونا منه، فإذا به سلمان بشحمه ولحمه.

بدا لنا سلمان شاحباً وذابلاً كحاله بالأمس، غير أنه كان هادئاً وبكامل وعيه، كعهده قبل أن يباغته المرض، وكان وجهه يكتسي بغلالة سميكة من الذهول. وبالطبع لم نكن نحن أقل ذهولاً منه، ولكننا لم نشأ أن نضيع وقتاً، بعد أن داهمتنا الرغبة في معرفة كل ما جرى، فبادرناه على الفور بالسؤال عن حاله، فأجاب بأنه على ما يرام، فعدنا نسأله عما فعل به الشيخ في تلك الليلة، فأجاب بأنه لا يتذكر شيئاً، كل ما في الأمر أنه فتح عينيه ليجد نفسه في الكوخ، وشعر براحة الشيخ وهي تمشي على جبهته، كما سمع الشيخ وهو يردد بعض التعاويذ، ولما استرد وعيه بالكامل، جذبه الشيخ من ذراعه فأنهضه.

جرى ذلك في غبشة الصبح، يقول سلمان، قبيل بزوغ الشمس من وراء البحر، وقبل أن نسأله عن الشيخ، بادرنا بقوله أن الشيخ دفع به إلى الشاد ‌ئ وأجلسه في ذلك المكان، دون أن ينبس بكلمة واحدة، ثم ربت على كتفه، ‌ رع يخوض في البحر حتى بلغ الماء كتفيه، ثم واصل الخوض حتى

كاد الماء أن يغمر رأسه.

وفجــأة، والكلام لا يزال لسلمان، انشق الماء عن سمكة كبيرة، خلتها حوتــاً ضــل طــريقه إلى الشاطئ، فلما أمعنت النظر، بدت لي كسمكة دراك، ســمكة دراك كبــيرة فــي حجم الهوري[1]، ما كادت تظهر فوق سطح الماء، حــتى شرعت تدور حول الشيخ وتناوشه، وكأنها تمهد لافتراسه، ولكن بدلاً مــن أن تفعــل، اختفى الشيخ فجأة في جوف الماء، ثم عاد الماء لينشق عن ســمكة أخــرى كبــيرة، بدت لي هي الأخرى كسمكة دراك، فأيقنت عندئذ أن معــركة حامية ستنشب بينهما، وأن إحداهما ستقتل الأخرى لا محالة.. ولكن شــيئاً مــن ذلك لم يحدث.. إذ شرعت السمكتان تتقافزان فوق سطح الماء.. إحداهمــا تتــبع الأخــرى.. ثــم انطلقــتا شرقاً إلى الباحة[2].. وقبل أن تبلغا الفــنادير[3].. استدارتا شمالاً.. وواصلتا انطلاقهما معاً صوب الجزيرة.. قالها وهو يشير بإبهامه صوب جزيرة جوبال.

(١) الهوري: القارب الصغير.

(٢) الباحة: المياه العميقة.

(٣) الفنادير: جزر صخرية صغيرة تقع شرق الغردقة.

زيارة الدبرغط

مفتتح :

صــعد الشـــيخ الأعمـــى فــوق قمـــة التل.. وأشار بإبهامه إلى عينيه المعطوبتيــن.. ثــم صـــاح بأعلى صوته في أهل النجع: "لقد عم بينكم الجبن والخســة.. فتهــيأوا للقصـــاص.. ستحل عليكم ساعة تسيرون فيها منكسي الرؤوس.. حينئذ لن يجرؤ على رفع رأسه سواي".

* * *

هــو أكــبر مــن القط ودون الثعلب، قد يظنه أحدهم قطاً كبيراً أو ثعلباً صــغيراً، فــبوزه مسحوب كبوز الثعلب، وذيله مبروم كذيل القط، ولكن رغم ذلــك هــناك مـــا يميزه عن كل القطط والثعالب، لونه الرمادي، وتلك الدائرة الســوداء التــي تحــيط برقبــته، وذيله الذي ينتهي بخصلة كثيفة من الشعر الأسود.

اعــتادوا على رؤيته كل بضع سنوات، يظهر فجأة فوق تل الجير الذي يحــد النجع من جهة الغرب، يرونه واقفاً على رجليه الخلفيتين، يحرك أذنيه الطويلتيــن يمنة ويسره، ويتلفت بعينيه البراقتين في جميع الاتجاهات، يتطلع إلــى الناس وإلى البيوت، مثل حاكم يتفقد رعاياه، لا تستغرق زيارته أكثر من بضـــع دقــائق، يهبط بعدها من التل، بنفس الخفة التي صعد بها، ثم يهرول مسرعاً فوق الرمال الصفراء، حتى يختفي في الصحراء الواسعة.

لـــيس معروفاً إن كان الدبرغط ينبح أم يعوى أم يموء، فلم يسبق لأحد أن سمع له صوتاً، الصمت يرافقه في حركته وسكونه، كما لم يشاهد قط وهو يتسلل إلى الحظائر أو البيوت أو يهاجم الدجاج الذي يتبختر في أرجاء النجع، لـــم يفعـــل شيئاً من ذلك أبداً، لم يؤذ طيراً أو حيواناً أو طفلاً، وكان هذا كفيلاً بأن لا يعبأ به أحد، لولا تلك المصائب التي تحل على النجع بعد كل زيارة من زياراته.

لذلـــك فقد ألف الجميع أن تقع مصيبة بالنجع كل بضع سنوات، أي بعد كـــل زيـــارة من زيارات الدبرغط، والمصيبة لا تقع على أي شخص، بل تقع علـــى شخص واحد فقط ممن رأوا الدبرغط، ورغم أن الدبرغط يرى من أكثر مـــن شـــخص في العادة، إلا أن المصيبة لا تشملهم جميعاً، بل تشمل شخصاً واحداً منهم، وهو ذلك الشخص الذي يراه قبل الآخرين.

هـــذا أمر يعرفه أهل النجع جميعاً، ويعرفون أن من يسوقه سوء طالعه لكـــي يسبق الناس في رؤية الدبرغط ستحل عليه مصيبة في نفس اليوم، أو خـــلال ســـبعة أيام على أقصى تقدير، وعلى من يسوقه حظه العاثر لذلك أن يهرع فوراً للاحتماء بساحة الشيخ أبو الحسن الشاذلي، وإن لم يستطع فعليه أن يلـــزم بيـــته، وأن يتوقف فوراً عن ممارسة أي نشاط، يتوقف عن العمل، وعـــن البيع أو الشراء، بل وأن يحجم عن المشاركة في أي مناسبة اجتماعية بالـــنجع، سواء كانت عرساً أو مأتماً، عليه أن يقبع في منزله مترقباً مصيره المحـــتوم، رغـــم علمهـــم جميعاً بأن البقاء في المنزل لن يحول دون وقوع المصيبة، كل ما في الأمر أن ذلك قد يؤجل وقوعها لبضعة أيام، أو في أفضل الأحوال قد يستبدل المصّيبة الفادحة بأخرى أقل فداحة.

تلــك عقــيدة راسخة لدى أهل النجع جميعاً، رسخها ما جرى لعديد من أهــل النجع طوال الأربعين عاماً الماضية، التي زار فيها الدبرغط النجع أكثر من سبع مرات، وإن كان البعض الآخر يصر على أن زيارات الدبرغط لا تقل عــن عشــر مرات. ورغم اختلافهم على عدد المرات التي زار فيها الدبرغط الــنجع، إلا أنهم يتفقون جميعاً على أن إبراهيم الشرهان كان أول من أصابته لعــنة الدبــرغط، ولا ينفــي الشــرهان ما يردده أهل النجع عنه، بل يؤكده، ويــتطوع ليحكي بنفسه ما جرى له، يحكيه بتلقائية شديدة، دون أن ينتابه أي شعور بالخجل، وكأنما يحكي عن شخص آخر.

* * *

يقــول الشــرهان أنه كان شاباً في العشرين، وهو بذلك يؤكد ما يردده أهــل الــنجع مــن أن أول ظهــور للدبــرغط كان منذ أربعين عاماً بالفعل، فالشرهان الآن في الستين من عمره أو تجاوزها بقليل، ويقول أن ذلك جرى فــي فصل الصيف، وكان الوقت قبيل صلاة العصر، كان مشغولاً حينئذ بتفقد بيته الجديد القريب من تل الجير، كان مثل كل العرسان يحاول أن يطمئن إلى أن النســوة قــد فرشن البيت على نحو لائق، وبعد أن اطمأن لذلك، خرج من بيــته متعجلاً، إذ لم يتبق أمامه سوى بضع ساعات، يستحم خلالها، ويرتدي ثيابه الجديدة، استعداداً لحفل زفافه بعد صلاة العشاء مباشرة.

وبيــنما هــو خارج من البيت، إذا بحيوان غريب، رمادي اللون، يقف أعلى تل الجير، كان الحيوان ساكناً، ولكن عينيه البراقتين كانتا لا تكفان عن الحــركة، تمســحان بــيوت الــنجع من أقصاه إلى أقصاه، بينما أخذت أذناه تــتحركان يمــنة ويسرة، ولكن الشرهان لم يعبأ به كثيراً، بل لم يدقق النظر

فـيه، ظـنه قطاً كبيراً، أو كلباً صغيراً، من جملة القطط والكلاب التي تجوب النجع ليلاً أو نهاراً.

لـم يكـن الشرهان يعرف شيئاً عن الدبرغط، ولم يكن لديه الاهتمام أو الرغـبة لكـي يحكـي عما رأى، لذلك نسي الأمر برمته، وانشغل بالاستعداد لعرسـه، الـذي أقيم في موعده تماماً بعد صلاة العشاء، ثم زف إلى عروسه في الحادية عشرة مساء، بينما تواصل العرس إلى الثانية صباحاً.

لم يحدث شيء غير مألوف يعكر صفو تلك الليلة، كل شيء مر بسلام، وقع أمر واحد فقط لم يشعر به سوى الشرهان وعروسه، فقد انبلج فجر تلك الليلة دون أن ينجح الشرهان في إثبات رجولته.

هـون الشرهان الأمر على نفسه وعلى عروسه، كان واثقاً أن الأمر له علاقـة بمـا يشـعر به من إرهاق، بعد عدة أيام قضاها في الإعداد للزواج، واسـتبعد أن يكـون للأمـر علاقة بالحسد أو بالأعمال السفلية، ذلك أن نحر ذبيحتيـن، واحدة على عتبة المنزل، وأخرى على عتبة غرفة النوم كان كفيلاً بإفسـاد أعتى الأعمال، ولكن عندما بدأ المهنئون يتوافدون عليه في صبيحة اليوم التالي سمع الشرهان من أحدهم ما أثار هواجسه.

قـال الشيخ الأعمى والمخرف أن الدبرغط قد زار النجع بالأمس، ولما سئل عما يقصد بالدبرغط، قال أنه جان مطرود من رحمة الله، يتراءى للناس علـى هيئة جرو رمادي اللون، وقال الشيخ المخرف أن الدبرغط لا يظهر إلا بعـد أن يعـم الجبـن والخسة، وحكى عن أحوال النجع التي لا تعجبه، وعن الذيـن فقـأوا عينـيه ظلماً وعدواناً، حكى عن ظلم الكبار وجبن الصغار، ثم أختـتم حديثه بقوله أن لعنة الدبرغط ستحل على جميع أهل النجع، وأنها، أي

اللعنة، تقع في شكل موت أو فضيحة أو خسارة مال أو فقدان عزيز.

جــرى هــذا الحديث في الصباح. ولكن اليوم لم ينقض حتى كان حديث الشــيخ الأعمــى قد انتشر في سائر أرجاء النجع، وردد أكثر من شخص أنه رأى الدبــرغط بــالفعل فوق تل الجير، وهرع بعضهم للسفر إلى مرسى علم، وهــم يســوقون الذبــائح، لكــي يحتموا بساحة الشيخ الشاذلي من المصيبة المــتوقعة، ولــم يعــد هــؤلاء إلى النجع إلا بعد سبعة أيام، وهي المدة التي يفــترض أن تحــدث فيها المصيبة، فعلوا ذلك دون أن يدروا أن المصيبة قد وقعــت بــالفعل، وأن فضيحة كبرى في طريقها للشيوع، وفي طريقها لتكون موضــوعاً للنميمة في مجالس الرجال والنساء على حد سواء، وليس أدعى للفضــيحة مــن أن يفقــد الشرهان رجولته، الشرهان الذي كان لا يكف عن الفخر بغزواته النسائية مع أغلب نساء النجوع المجاورة، وإن كان يحجم عن الحديث عن مغامراته مع نسوة النجع درءاً للمتاعب وطلباً للسلامة.

اضــطر الشــرهان إلــى تطليق زوجته بعد خمسة أشهر من الزواج، وتــزوج ثــلاث زيجــات متتالــية، فشلت جميعها، بعد أن فشل هو في إثبات رجولته مع زوجاته الأربع على السواء.

* * *

توالــت زيــارات الدبــرغط بعــد ذلك، وتساقط ضحاياه تباعاً، فحمدان العمــيري صــدمته ســيارة مســرعة في اليوم السادس من رؤيته للدبرغط، واضــطر الأطباء إلى بتر ساقه اليمنى إنقاذاً لحياته، وسلمان الرشيدي انفجر موقــد الكيروســين في زوجته لتفارق الحياة على الفور، وحسان العويضي هبــت علــيه ريــاح الشرو، في أول رحلة صيد قام بها بعد رؤيته للدبرغط،

تحطـم خلالها قاربه ولم يعثر على جثته، وعمران الرشندي فقد إحدى أجمل بـناته، بعـد أن لدغهـا عقرب شرس، في مساء نفس اليوم الذي وقعت فيه عيناه على الدبرغط فوق تل الجير.

قـام أهـل الـنجع بتربـية عدد كبير من الكلاب، لعل وجودها يرهب الدبـرغط ويكون حائلاً دون قدومه، ولكن الكلاب لم تستطع أن تفعل شيئاً، إذ ظـل الدبـرغط مواظـباً على زيارته للنجع كل بضع سنوات، وظل الضحايا يتسـاقطون إثـر كـل زيـارة، حتى بعد أن صار عدد الكلاب أكبر من سكان النجع، بل أن الكلاب كانت أول من يتجنب الاقتراب من تل الجير عندما يعتليه الدبرغط، وأول من يهرب عندما يشمون رائحته.

اقـترح أحدهم أن يقوم السكان بإزالة تل الجير، أي أن يقوموا بتسويته بالأرض، وتحمس الكثيرون للفكرة، وجمعوا ما يكفي من أموال لهذا الغرض، ثـم كلفوا أحد المقاولين بهذه المهمة، وجاء المقاول برجاله ومعداته، ونجح في تسوية التل بالأرض بعد أسبوعين كاملين من العمل المتواصل، ولكن ذلك لـم ينجح في منع زيارة الدبرغط، إذ جاء الدبرغط في موعده ليقف على التل الرملي المجاور لتل الجير الذي تمت إزالته.

مـاذا يفعلون أكثر من ذلك؟ يقول أحدهم، لقد كانوا يظنون أن الدبرغط يفضـل تـل الجير على غيره من التلال، ولكن ها هو الدبرغط يقف على تل آخـر وكـأن شـيئاً لـم يحدث، هل يزيلون كل التلال المحيطة بالنجع؟، أمر مسـتحيل ومثـير للسـخرية، يقول آخر، فبيوت النجع تقع في واد منخفض تـتقاطر الـتلال علـى حافتـيه، ثلاثون تلاً، وربما أكثر، إذ لم يفكر أحد في إحصائها من قبل.

أمـــا فكـــرة اللجـــوء للحكومـــة، التي طرحها أحدهم، فقد كانت مثيرة للســـخرية هـــي الأخـــرى، فـــزيارة الدبرغط لا تستغرق أكثر من لحظات ثم ينصـــرف، أي سينصـــرف الدبـــرغط قـــبل أن يتمكن أحدهم من مجرد إبلاغ الحكومـــة، وبالطبع لم يستمع أحد لسلمان المجنون الذي اقترح أن يكتب أهل الـــنجع للحكومـــة كـــي تكلف بعض جنودها المسلحين بالمرابطة فوق التلال المحيطة بالنجع لقتل الدبرغط بمجرد قدومه، من المؤكد أن الحكومة ستسخر مـــنهم، لأن الدبـــرغط لا يأتي كل يوم، بل كل بضع سنوات، وإذا كان سلمان مجـــنوناً، فـــإن الحكومـــة ليست مجنونة كي توقف جنودها عدة سنوات لقتل الدبرغط الذي قد يأتي أو لا يأتي.

أقـــر ســـكان النجع أخيراً بأن التخلص من الدبرغط أمر مستحيل، حتى بعـــد أن اقـــترح أحدهم وضع السم له، قالوا له لا يمكننا أن نقوم بإلقاء السم جـــزافاً، فلا أحد يعرف على وجه اليقين متى سيأتي الدبرغط كي نعد له قطعة لحـــم أو دجاجـــة مغموسة بالسم، ثم أن الدبرغط لم يشاهد قط وهو يأكل أو يشـــرب، حتى البندقية الوحيدة في النجع والتي يمتلكها أحدهم لم تسعفهم في الـــتخلص مـــنه، فالبندقـــية غـــير مرخصة، وإخراجها من مخبئها قد يعرض صـــاحبها للمســـاءلة، وقـــد يدفـــع الحكومة إلى تفتيش بيوتهم جميعاً، ثم أن البندقـــية تحـــتاج إلـــى رام يحسن التصويب، ودقة التصويب تتطلب أن ينظر الرامي إلى الدبرغط، أي أن يوافق الرامي على أن يعرض نفسه إلى مصيبة، مـــثل كـــل المصائب التي حلت بكل من رأى الدبرغط أو نظر إليه، وقد عقب الشـــيخ الأعمـــى والمخـــرف علـــى ذلـــك بقولـــه: "كل من بالنجع يحسنون التصويب.. ولكن ليس من بينهم رجل واحد".

لـــم يجد أهل النجع مفراً من الإيمان بكل ما كان يردده الشيخ الأعمى، خاصـــة بعد أن ضاعف الدبرغط من زياراته خلال الشهور الأخيرة، التي دأب الدبرغط خلالها على زيارتهم عدة مرات في الشهر الواحد، والأخطر من ذلك أن الدبرغط لم يعد يحصر زيارته على الوقوف على أحد التلال المشرفة على الـــنجع، بـــل شرع أيضاً في التجول في قلب النجع، وأصبح من المألوف أن يفاجـــئ أحدهـــم برؤية الدبرغط وهو يتهادى في أحد الأزقة، أو وهو واقف بالقـــرب مـــن عتبات البيوت، يمكن أن يحدث ذلك في أي ساعة من ساعات النهار، من شروق الشمس وحتى غروبها.

ولـــم يعـــد أمـــام القادرين من أهل النجع سوى أن يهجروه إلى نجوع أخرى بعيدة، ولكن غير القادرين ظلوا في النجع على حالهم، ظلوا يمارسون حـــياتهم العادية دون تغيير، التغيير الوحيد الذي طرأ عليهم هو طريقتهم في الســـير، إذ دفعهـــم الخـــوف مـــن رؤية الدبرغط إلى تنكيس رؤوسهم وهم يسيرون في دروب النجع.. لا يجرؤ أي منهم على رفع رأسه.. شخص واحد فقـــط فـــي النجع لم ينكس رأسه.. وهو الشيخ الأعمى.. إذ ظل يسير كعادته مرفوع الرأس.. وعلى شفتيه ابتسامه لا تفارقها.

واقعة اختفاء عوده الرشندي

يقول الشيخ حمود، شيخ الرشندية: نحن عيال البحر.. نبتنا في أعماقه مثل القناديل وأعشاب القيصار.. ثم حملتنا الأمواج وزرعتنا على الساحل.

ويقول أيضاً: يستضيف البحر الغريق ثلاثة أيام ثم يلقي بجثته إلى أهله في اليوم الرابع.. ولقد تعلمنا من أبينا البحر أن نحتفي بالضيف ثلاثة أيام.. لا نسأله خلالها عن اسمه أو هويته.. وفي اليوم الرابع نترك له الخيار.. إما أن يبقى بيننا معززاً مكرماً أو أن يرحل لأهله.

* * *

في اليوم الأول امتقع وجهها.. واستباحت صفحته غلالة صفراء في لون الكركم.. ثم أطلقت صرخة مدوية ارتجت لها بيوت الرشندية.. وأخذت تدور في حوش البيت الترابي وهي تلطم كفيها وتدق على صدرها دقات متتابعة.. ثم سقطت مغشياً عليها.. وعندما قيل لها في اليوم الرابع أنهم لم يعثروا على الجثة غاضت الدموع من عينيها فجأة.. ثم أطلقت زغرودة طويلة.. طويلة.. وصاحت:

– عوده لم يغرق.. والله لم يغرق.. إنه الآن بين أحضان مزيونة.

ثم أشهرت كفيها في وجه الرجال وقالت: "لا تنصبوا سرادق العزاء.. ستطلق مزيونة سراح ولدي بعد عشرين عاماً.. أقسم لكم.. مزيونة لا تخلف موعدها أبداً.. هكذا حدثني أبي وجدي".

بعد أن انفض الجمع تهامس بعض الرجال "الحرمة خرفانة"، ولكن

ســلمى تواصل حديثها مع من تبقى من النسوة فتقول أنها تعرف عن جنيات الــبحر أكــثر ممــا تعــرف عن جيرانها، فلكل جزيرة في البحر جنية، جنية الجفــتون اســمها مزيونة، سمعت ذلك مراراً من جدي وأبي، ومعزوزة هي جنية شدوان، أما جزر الفنادير فتسكنها ثلاث جنيات، ولكن مزيونة هي أجمل جنيات البحر على الإطلاق، بل وأكثرهن طيبة، لأنها تختطف شاباً واحداً فقط كل عشرين عاماً، تتزوجه، يعيش معها هانئاً، ثم تعيده لأهله سليماً معافى.

عــندما كنت صغيرة، لازالت سلمى تحكي، أطلقت مزيونة سراح عوض الرشــندي، عــاد إلــى أهله وهو في الخمسين من العمر، وكانت مزيونة قد اختطفته وهو لا يزال شاباً في الثلاثين.

ومــزيونة ماكــرة، تســتطرد سلمى، فهي تسخر في خدمتها النوارس وأسـماك الحريد، في البدء تجوب النوارس السماء فوق جزيرة جفتون، فإن لمحــت مركباً في الأفق عادت وأبلغت مزيونة، عندئذ تعطي مزيونة أوامرها لأســراب الحــريد باســتدراج المركب، وتشرع أسراب الحريد في تنفيذ الأمر علــى الفــور، تــتجمع الأسراب سريعاً أمام المركب وتكون قريبة من سطح المــاء، فتجذب انتباه الصيادين بألوانها الزاهية وزعانفها اللامعة، حينئذ تبدأ المطاردة، وتتحرك الأسراب صوب حافة جزيرة جفتون الجنوبيّة، منطقة نفوذ مــزيونة، وعندما تتوغل المركب في منطقة النفوذ، تلقي مزيونة بضفائرها، وتجــذب المركــب رغمــاً عــنها صوب الصخور حتى تتحطم، وعندما يلقي الصــيادون بأنفســهم في الماء، تختار مزيونة أملحهم، وتطبق عليه بخصلة واحدة فقط من ضفائرها، وتجذبه إلى القاع.

* * *

اعتـــباراً من اليوم الرابع لم تذرف سلمى دمعة حزن واحدة، فقط ظلت صـــامتة، صامتة تماماً حتى قيل أن الحرمة مطيورة وعقلها شت، وإذا كانت المـــرأة قد صمتت فإن الرشندية لم يصمتوا، إذ بدأت منذ ذلك الحين ثرثرات طويلة عن البحر وجنياته الطيبات منه والشريرات.

يقـــول ســـالم ابن عوض الرشندي أن ما قالته الخالة سلمى بخصوص غياب أبيه لعشرين عاماً صحيح، ولكن أباه بعد عودته لم يكن يتذكر أين كان مختفـــياً طـــوال هذه المدة، وبالتالي فمن المحتمل أن أباه كان متزوجاً بالفعل مـــن مزيونة بعد أن تحطم قاربه عند حافة الجفتون الجنوبية، ومن المحتمل كذلـــك أن يكـــون أبـــوه قـــد سبح سالماً إلى الشاطئ ثم أصيب بفقدان مؤقت للذاكرة فهام على وجهه في بلاد الله حتى عادت إليه ذاكرته فرجع لأهله.

ويقول سعيد الرشندي أن جميع الجزر المواجهة لسواحل الغردقة خالية تماماً من الجنيات، وأن الجزيرة الوحيدة المسكونة بالجنيات هي جزيرة دهلك عـــند سواحل اليمن، ويؤكد سعيد زعمه بقوله أنه رافق أباه إلى الجنوب في عزبة من عزبات البوري، وأن أباه كان حريصاً أن ينأى بالمركب عن جزيرة دهلـــك بقـــدر الإمكـــان، بل أن أباه كان يردد دائماً: "يا رايح دهلك.. يا فاقد أهلك".

ويـــتفق إبراهـــيم سليمان، صاحب الخبرة الطويلة بالبحر، مع ما يردده ســـعيد الرشـــندي مـــن أن جزيرة دهلك مسكونة بالجنيات، ولكنه يضيف أن جزيـــرة أم قمعـــر أيضاً مسكونة بجنية تهوى عزف اليماني على السمسمية، وأن هـــذه الجنـــية حاولـــت فـــي الصـــيف الماضي أن تجذب مركبهم صوب الصـــخور، لولا أنه أسرع بعزف بعض ألحان اليماني على السمسمية فأطلقت

الجنية سراحهم على الفور.

ولـــم تقتصــــر الثرثرة على الرجال وحدهم، إذ كان للنساء أيضاً نصيب فـــيها، فـــتقول جميعه، زوجة حسين الشافعي الذي اختفى بقاربه الصغير منذ عشر سنوات قرب الفنادير، أن زوجها أيضاً لم يغرق بل خطفته إحدى جنيات الفـــنادير، حيـــث من المعروف أن جزر الفنادير مسكونة بثلاث جنيات، وأن الجنـــيات الـــثلاث يتبادلـــن الاحـــتفاظ بالرهينة لمدة عشر سنوات لكل جنية، وبحســـبة بســـيطة، والكلام لا يزال لجميعه، فإن زوجها سيطلق سراحه بعد عشرين عاماً من الآن.

ورغـــم أن الريس عايد، قائد المركب المنكوبة، كان قد لزم الصمت بعد الحادث مباشرة، فإن زوجته راشده اغتنمت صمته لتتحدث نيابة عنه، فتقول أن زوجهـــا كان متجهاً بالمركب صوب جزيرة جيسوم عندما تجمعت أسراب الحـــريد أمام المركب، عندئذ أعطى أوامره بملاحقة الأسراب التي شرعت في التحرك صوب جزيرة جفتون.

وتضـــيف راشده أن عوده لم يكن على متن المركب بل كان على ظهر الهـــوري المربوط بمؤخرتها، وأنه كان يضرب سطح الماء بالروتان، وعندما وقع الحادث انقلب الهوري ولم يظهر لعودة أثر.

ولمـــا علقت إحدى النسوة بأن من المحتمل أن قرشاً التهم عوده بدليل أنـــه كـــان يضـــرب سطح الماء بالروتان لإبعاد القرش عن الهوري، أجابت راشـــده بـــأن المياه حول الجفتون خالية من القروش.. هكذا أخبرها زوجها الخبير بشئون البحر.

* * *

بالنســبة لــي، لم أعش قط بمعزل عما يجري في نجع الرشندية، ليس فقــط لكونــي مــن ســاكنيه ولكــن أيضاً لأن عوده نفسه كان من أصدقائي المقربيــن، وكنــت كثــير التردد على منزله، وكنت أبادل والدته مشاعر الود والمحبة لطيبتها وبشاشتها.

كانــت المــرأة تميل للقصر والنحافة بعض الشيء، ذات جبهة عريضة تزدان بوشم أخضر على شكل مخرطة، وكأغلب حريم الرشندية لم تكن المرأة تــرتدي سوى الثوب الأسود والطرحة السوداء، دائماً أبداً حتى في الأعراس. مــات زوجهــا ولم يزل عوده طفلاً صغيراً، وعندما اختفى لم يتبق لها سوى ابنــتها فاطمة المتزوجة في ذات النجع، وبعد اختفاء عوده طاف بخاطري أن أســأل عمــن يعــول المرأة من بعده، ثم تراجعت لعلمي برغبة الرشندية في التكتم على مثل هذه الأمور، إذ يعدون الخوض فيها تدخلاً سافراً في شئونهم الخاصة.

لــم أنقطــع قط عن زيارة الخالة سلمى، خاصة في الأعياد والمناسبات الدينية، وطوال عشرين عاماً كانت المرأة متشبثة بأن ولدها لا يزال على قيد الحياة، بل ويعيش هانئاً بين أحضان مزيونة جنية الجفتون، ربما لهذا السبب توقفــت المرأة عن البكاء منذ اليوم الرابع من اختفاء ولدها، وربما بسبب ما ذكــرته لــي مــن أن مــزيونة تحتفظ بمن اختطفته صحيحاً معافى لا يدركه المرض أو الموت طوال احتفاظها به.

كــان الحديث عن الجنيات هو الحديث المفضل لدى الخالة سلمى، وكان علــى الزائر لها أن يجاريها ويصدقها في كل ما تقول، بل كان عليه أن يقص علــيها أيضاً ما يعرف من حكايات الجنيات، وهذا هو ما كنت أفعله بالضبط،

بل إنني ذهبت لأكثر من ذلك عندما كنت أختلق لها بعض الحكايات التي أزعم أنني قرأتها مؤخراً في الكتب أو الجرائد، وكانت المرأة تسعد بها كثيراً، وتسعد أكثر عندما أؤكد لها أن عوده راجع لا محالة، وبقدر ما كانت تسعد بذلك بقدر ما كان الحزن يتملكها عندما يفصح لها البعض عن استخفافهم أو سأمهم من حكاياتها المكررة.

تقول الخالة سلمى أن عوده خرج من المنزل الساعة العاشرة من صباح العاشر من شعبان، وكان عمره خمسة وعشرون عاماً، وطبقاً لما دأبت عليه مزيونة فإنها ستعيده إلى أهله في تمام الساعة العاشرة من صباح العاشر من شعبان الذي يأتي بعد عشرين عاماً.. وسيكون عمره حينئذ خمسة وأربعين عاماً.. المرأة تقول ذلك بثقة شديدة، بل وتطلب من الله أن يطيل عمرها حتى تكون بانتظاره في ذلك اليوم.

* * *

ذات مساء أرسلت الخالة سلمى من يذكرني بأن اليوم التالي يوافق العاشر من شعبان، الموعد الذي ستطلق فيه مزيونة سراح عوده في العاشرة صباحاً، إذ مضت عشرون سنة بالتمام والكمال منذ اختفائه، والحق أنني ترددت كثيراً في تلبية الدعوة، ثم استقر عزمي في النهاية على الذهاب، وذهبت بالفعل.

حين بلغت الدار كان هناك صبي من أبناء الجيران يرش الأرض بالماء، وكان هناك خروف متوسط الحجم مربوط في وتد، بينما قبعت الخالة سلمى أمام البيت وقد بدت لي شديدة الضمور، كما بدا ظهرها أكثر انحناء ووجهها أكثر سمرة عن ذي قبل، وأوشك الوشم الذي يزين جبهتها أن

يتلاشى بعد أن طمست معالمه تحت وطأة التجاعيد العميقة.

كانت الخالة سلمى ترتدي ثوباً جديداً لامعاً، وتفوح منها رائحة عطرية طيـبة، وكانت كفاها مخضبتين بالحناء، وإلى جوارها جلست امرأة متوسطة العمـر عرفـت فيها فاطمة شقيقة عوده، وفي منتصف الحصيرة تماماً جلس صـالح راشـد ممسكاً بالسمسمية ومستغرقاً في عزف ألحان اليماني، وعلى حصيرة أخرى مقابلة جلست بعض النسوة والأطفال، كما جلس بعض الرجال علـى مقـربة يراقـبون ما يجري، وفيما عدا ذلك كان نجع الرشندية هادئاً كالعـادة فـي مثل هذا الوقت من الصباح، باستثناء بعض النسوة اللاتي كن يتطلعن إلينا من النوافذ وفرجات الأبواب.

كانـت السـاعة العاشرة إلا ربعاً تقريباً عندما نهضت الخالة سلمى من جلسـتها، مستندة براحتها على كتف ابنتها، ومطت رقبتها متطلعة إلى مدخل الـنجع مـن ناحية الشرق، وكنت مشغولاً وقتها بالاستماع لعزف السمسمية وغناء صالح راشد بصوته الرخيم:

يـا لـيل دانـه يـا دان	يـا لـيل دانـه يـا دان
ولـد الـبحر دايمـاً شـقيان	مكـتوب علـيه قلـة الراحه
مـثل السـفينة بـلا ربـان	يلعـب بهـا الموج في الباحه
يـا لـيل دانـه يـا دان	يـا لـيل دانـه يـا دان

فـي تمـام الساعة العاشرة ظهر رجل عند مدخل النجع الشرقي، ظهر فجـأة وكأنما هبط من السماء، كان الرجل يسير حثيثاً في اتجاهنا وهو يتلفت فـي جمـيع الاتجاهـات، وعـندما اقترب عرفت فيه كهلاً في نحو الخامسة

والأربعيـــن، ولما صار أكثر قرباً أومأت إلينا الخالة سلمى فنهضت، ونهضت النســـاء جمـــيعاً وبعـــض الـــرجال وإن ظل البعض الآخر جالساً كأن شيئاً لم يحدث.

عـــندما أصـــبح الـــرجل أمامنا مباشرة عركت الخالة سلمى عينيها ثم أطلقـــت زغـــرودة طويلة.. طويلة جداً.. فتوقف الرجل على الفور.. وتقدمت الخالـــة ســـلمى لتـــتجمد أمامه كتمثال من الحجر بينما وقف الرجل متسمراً ومثبتاً عينيه في وجهها.

أمســـكت الخالـــة ســـلمى براحتي الرجل، الذي بدا مستسلماً تماماً لها، وراحـــت تـــتفرس فـــي وجهه، ثم حانت منها التفاتة لإبنتها فاطمة وبادرتها قائلة: "انظري.. أليس هذا هو أخوك عوده؟".

كانـــت بيوت الرشندية قد أفرغت كل ما بجوفها على صوت الزغاريد، وتحلـــق حولنا عدد كبير من النساء والأطفال والرجال، وكنت لا أزال أتفرس في وجه الرجل عندما بادرتني الخالة سلمى بنفس السؤال: "انظر.. أليس هذا هو صاحبك عوده؟".

ودون أن تنـــتظر مني رداً أو تعقيباً تلفتت صوب الحزام البشري الذي أطـــبق علـــينا مـــن كـــل صوب.. وأخذت تتفحص الوجوه وجهاً وجهاً.. ثم اعتصـــرت وجههـــا.. وصـــاحت بصـــوت متشـــنج: "ألـــم أقل لكم أن ولدي سيرجع؟".. قالتها.. ثم ألقت برأسها في صدر الرجل.. وطفقت تبكي.

الرقصة الأخيرة للبعوة

سـليمة أولـى الضـحايا.. كانت بمفردها في البيت.. وأمها في زيارة للجـيران.. وعـندما عادت الأم وجدت باب الدار مفتوحاً والبنت مرمية على العتبة.

من يومها والبنت تصاب بنوبات إغماء متكررة.. رشوا عليها البسلة[1] فلـم تجـد شيئاً.. زاروا بها الشيخ مالك في القصير.. ثم الشيخ الشاذلي في مرسـى علـم.. ونامـت البنت في ساحة الشاذلي ليال ثلاث.. وقبل عودتها عصـب النقيب رأسها برقعة من ثوب الشيخ.. وأخيراً سيقت البنت مع ثلاث قوايد[2] للشيخة فاطمة العبادية في الشلاتين.

رسـمت الشيخة بسبابتها تمساحاً على الأرض.. وأمرت البنت أن تنط علـيه سبع مرات.. ثم بخرتها بعين الجمل وشحم الماعز.. بعدها بصقت في صـدر البنـت.. ثـم نظرت إلى عينيها.. وقالت: "مالها عندي علاج.. بنتكم مربوطة من سابع أرض".

ومـا جـرى لسليمة هو نفسه الذي جرى لست بنات أخريات من بنات العـوازم، كلهـن ربطن من سابع أرض في غضون عام واحد، وكلهن أصبن بـنفس الـنوبات المتكررة من الإغماء، وما يجمع بين البنات السبع أن كلهن

---

(١) البسلة: بكسر الياء وتسكين السين.. خليط من الحبوب يرش على المحسود أو الممسوس.
(٢) القوايد: جمع قويدة.. وهي رأس الغنم أو الماعز التي تساق على سبيل الهدية.

جميلات، وكلهن كن بمفردهن في الدار عندما وقع لهن ما وقع.

* * *

تقـول الجـدة حسـينة أن الشـيخة فاطمـة على علاقة وثيقة بالجان الطيبيـن، أما الجان الأشرار فهناك عهد بينها وبينهم بألا تفضح سرهم مقابل ألا يـتعرض أحدهـم لمـنطقة نفوذها في الشلاتين، لذلك فإن الشيخة عندما ذكـرت بـأن البنات مربوطات من سابع أرض فقد كانت تقصد البعو بالذات، فالـبعو هـو الجان الشرير الذي يسكن الأرض السابعة، ولكن الشيخة لم ترد أن تذكره بالاسم حتى لا تنقض العهد بينها وبينه.

وتستطرد الجدة حسينة:

البعو له زوجة نصف جنية ونصف أنسية تدعى البعوة، كان البعو يهيم بهـا حـباً في بادئ الأمر، ولكنها عصت أمره ذات ليلة، كان من نتيجتها أنه عـزف عن معاشرتها، وحتى يكيدها فقد سخرها رغماً عنها لتجلب له أجمل العذارى من الإنس كي يعاشرهن على فراشها وعلى مرأى منها، ومن يومها وهي مسخرة لهذا الغرض دون أن تجرؤ على الاعتراض، حتى لا ينتقم منها البعو فيحولها إلى كتلة من النار.

وتسترسل الجدة حسينة:

تخرج البعوة إلى السطح، من أي شق من شقوق الأرض، يتصاعد من الشق دخان أبيض كثيف في البداية، ثم ينقشع الدخان لتتجلى البعوة في شكل أنسـية ترتدي المسفع والنقاب كدأب حريم العربان، وتتجه مباشرة إلى منزل البنـت التـي يشـير بها البعو، ولابد أن تكون البنت بمفردها بالدار في تلك اللحظـة، فـتطرق البعوة على الباب، وعندما تفتح لها البنت، تمد لها البعوة

يدهـــا لتصـــافحها، وبمجرد أن تتم المصافحة تصاب البنت بالغيبوبة، وتسقط من طولها على عتبة الدار.

وعندما تفقد البنت وعيها، والكلام لا يزال للجدة حسينة، لا يتبقى منها فوق الأرض سوى جسد كاذب أما جسدها الحقيقي فيكون في سابع أرض مع الـــبعو، وبعـــد أن يقضي البعو حاجته يعود للبنت جسدها الحقيقي وتفيق من غيبوبـــتها، ولكن دون أن تتذكر شيئاً عما جرى لها، كما تعود للبنت عذريتها وبكارتها حتى يستدعيها البعو من جديد لسابع أرض.

تـــتحدث الجـــدة حسينة بثقة شديدة، وبنفس الثقة تشير إلى الحل: على العـــوازم أن يرشـــوا الشـــيح[1] المدقوق على عتبات منازلهم، ذلك أن رائحة الشيح تؤذي البعوة وتمنعها من الاقتراب من البيوت، أما إذا أراد العوازم أن يتخلصوا من البعوة إلى الأبد فلا مناص من أن يقوم فتى بالغ بلمسها في أي مـــنطقة من جسدها، ولأن البعوة تكون متدثرة بالثياب من رأسها إلى أخمص قدميها فإن مجرد ملامسة الفتى لثيابها تكفي للقضاء عليها، إذ تتحول البعوة علـــى الفـــور إلـــى كرة مشتعلة من النار ثم تخمد النار ويتطاير رمادها في الهـــواء دون رجعة، يحدث هذا للبعوة دون أن يقع أي ضرر على الفتى الذي قـــام بملامســـتها، وتؤكـــد الجـــدة حسينة أن البعو قد وجد في بنات العوازم الجميلات ضالته، وأن "رينة" بنت محمود سالم ستكون ضحيته القادمة، لأنها أجمـــل بنات العوازم، ومن ثم فإن على العوازم أن يشرعوا على الفور بتنفيذ

---

(1) الشـــيح: نـــبات صحراوي عطري.. يستخدم في علاج أوجاع البطن.. ويرشه العربان على عتبات الدور لطرد العقارب والأفاعي.

نصــيحتها إن أرادوا تحريــر بناتهم المأسورات ومنع البعوة من أسر المزيد منهن.

* * *

لــم يــبق بيــت واحد فيه بنت جميلة أو قبيحة إلا ورشوا على عتبته الشــيح المدقــوق، ولأنــه مدقــوق فإن الريح كانت سرعان ما تطيره ليعود العوازم إلى رشه من جديد، ثلاثة أشهر يرشون الشيح حتى لم يبق في النجع حفــنة واحــدة مــنه، ولأن المعازة قد سمعوا بالأمر، فقد وجدوا في الشيح تجــارتهم الرائجة، يأتون بأجولة الشيح من الجبال والوديان ليبيعوها للعوازم بضعف الثمن.

وكان لابد للعوازم من حل دائم يخلصهم من البعوة ومن ابتزاز المعازة فــي آن واحــد، وكــان الحل جاهزاً عندهم، لابد من أن يتطوع أحد فتيانهم بملامســة البعوة كما نصحت الجدة حسينة، أما كيف يتأتى ذلك فقد جاء دور الشيخ عبيان ليفصح لهم عن خطة جاهزة لا ينقصها سوى التنفيذ.

والخطة بسيطة للغاية، يقول الشيخ عبيان، إذ لا تتطلب سوى أن ينتظر العــوازم أول عرس زواج يقام في النجع، وفي هذا العرس ترقص رينة بين صــفوف الــرجال، ومن المؤكد أن البعوة التي فشلت مراراً في أسر رينة لن تغيب عن العرس، بل ستأتي خصيصاً كي تتظاهر بمشاركة رينة في الرقص، ثــم تقترب منها رويداً رويداً حتى تلمس يدي البنت، عندئذ ستسقط رينة في غيبوبة، لتلحق ببنات العوازم السبع.

وحــتى يفوت العوازم الفرصة على البعوة، كان عليهم أن يتخيروا فتى يتنكر في ثياب امرأة، وعلى الفتى أن ينزل الحلبة بمجرد دخول البعوة إليها،

علـيه أن يتظاهر أيضاً بالرقص، ثم يقترب رويداً رويداً من البعوة، وبمجرد أن تصـبح فـي متناول إحدى يديه عليه أن يلامسها أو يلامس ثيابها، عندئذ سـتطلق الـبعوة صرخة مرعبة، ثم تسقط متكورة على الأرض، وسرعان ما تندلع فيها النيران لتهلك دون رجعة.

ولأن الشيخ عبيان لم يشأ أن تكون في خطته أي ثغرة، فقد أوصى بأن يـتم التشـديد على جميع نسوة العوازم بعدم النزول إلى حلبة الرقص، رينة فقـط هـي المسموح لها بذلك باعتبارها مجرد طعم لاستدراج البعوة، عندئذ يمكـن الـتعرف على البعوة بسهولة، ذلك أن أي امرأة بعد ذلك تدخل الحلبة لترقص مع رينة ستكون هي البعوة حتماً.

اقـترح الـبعض أن يقـيم العـوازم عرساً زائفاً، مجرد عرس وهمي لاسـتدراج الـبعوة، ولكـن الشيخ عبيان رفض ذلك وأصر أن ينتظر العوازم عرسـاً حقيقياً حتى لا تفطن البعوة إلى ما يجري، ولم ينتظر العوازم طويلاً، إذ سـرعان مـا ارتفعت زغاريد النسوة في النجع، ودقت الدفوف إعلاناً عن زواج رابحة من راشد.

وبالطـبع تـم اطـلاع والد رينة على الخطة فتردد في بادئ الأمر، ثم اضـطر للموافقـة بعـد أن تعهـد لـه الشـيخ عبيان بأنه لن يسمح للبعوة بملامسـتها. وتـرددت رينة أيضاً، بل رفضت رفضاً قاطعاً فكرة الرقص مع الـبعوة في حلبة واحدة، ثم عادت ووافقت بعد أن وقع الاختيار على عمران كي يشاركها الرقص في الساحة متنكراً في ثياب امرأة.

* * *

بـــدأ العرس بالزريبي[1] بعد صلاة المغرب مباشرة. اصطف الرجال في صفين متقابلين، بينما جلست النسوة في تلك المساحة الممتدة من بيت الشيخ إلـــى حيـــث يصـــطف الـــرجال، خليط من نساء العوازم والرشندية والمعازة المنقـــبات بثيابهن ومسافعهن السوداء بحيث يستحيل على أي رجل أن يميز بين امرأة وأخرى.

تواصـــل الزريبـــي إلى ما قبل صلاة العشاء، وأعقبه الرفيحي[2] ، ومع أول دقة طار في صفوف الرفيحي كانت رينة في منتصف الحلبة:

(يا حليلك يا كحل الدلال كل ما يسحنونك تزيد)

إذ كانت تلك هي السامرية المتفق عليها كي تدخل رينة إلى الساحة.

رقصـــت رينة كما لم ترقص من قبل، إذ رغم جزعها من مجرد التفكير فـــي قدوم البعوة، إلا أن شعورها بالزهو كان قد فاق شعورها بالجزع، يكفي أنها انتزعت اعترافاً صريحاً من جموع العوازم بأنها أجمل البنات، ويكفي أن عمـــران سيشاركها الرقص لأول مرة، كانت ترقص وعيونها تبحث عنه من خلـــف النقاب، جالت بعيونها كثيراً بين صفوف الرجال، ثم تذكرت أن الخطة تقضـــي بـــأن يتـــنكر عمـــران فـــي ثياب امرأة، فولت وجهها صوب النسوة المـــتربعات علـــى الأرض تبحـــث بينهن عن فتاها، كل النساء متشابهات من خلـــف النقاب، قالتها ثم واصلت الرقص، رقصت كثيراً، وشعرت بخصلة من شـــعرها تنســـل مـــن طرف المسفع، فلم تكلف نفسها عناء إخفائها، واصلت

---

(١) الزريبي: غناء ورقص جماعي يشترك فيه الرجال دون النساء.

(٢) الرفيحي: غناء ورقص جماعي للرجال تشاركهم فيه النساء في الرقص فقط.

الرقص بخفة ودلال، كانت تعرف أن عمران هناك، وأنه يرقبها، وكانت تدرك أن الغــيرة ستتملكه وهو يرى فتيان العوازم وهم يأكلونها بعيونهم ويطلبون مودتها بأهازيجهم:

(دميت أداديك وأعطيك البلح في إيدك ليش يا الحلو تكرهني وأنا أريدك)

امــتد العــرس في اليوم الأول إلى ما بعد منتصف الليل دون أن يظهر للــبعوة أي أثــر، وانتهى اليوم الثاني كذلك دون أي بارقة أمل في ظهورها، وبــدأ الشك ينتاب الجميع في صحة ما تروج له الجدة حسينة، وعاد البعض يســخر مــرة أخرى من تخاريف الجدة، ولكن الشيخ عبيان كان دائماً هناك، ينهر كل من يثبط الهمم، ويبث الثقة في أن البعوة آتية لا ريب في ذلك.

فــي الــيوم الثالث والأخير للعرس أشار الشيخ عبيان بأن يبدأ العرس بالرفيحــي بــدلاً من الزريبي، فاصطف الرجال في صف واحد كبير، واحتشد الفتــيان من ضاربي الدفوف، وشرعت رينة في الرقص على أهازيج الرفيحي الســريعة، وبمجرد أن شرعت في الرقص سرت همهمة بين الرجال، بعد أن شــوهدت امرأة منقبة، لا تختلف عن نسوة العوازم في مظهرها، وهي تنسل إلــى الساحة لتشارك رينة الرقص، وفي تلك اللحظة رفع الشيخ عبيان عصاه ورفــع عقــيرته بســامرية مختلفة لا تتفق مع الإيقاع العام للرفيحي، وانتبه الرجال لذلك، وأدركوا أن الشيخ يرمي إلى شد انتباههم لقدوم البعوة:

(أول الفال نبدأ بصلاة النبي يا شفاعة محمد يا قوة علي)

وكانــت تلــك هي السامرية المتفق عليها كي ينهض عمران من بين صفوف النساء ليدخل الساحة ويقوم بالمهمة المكلف بها.

* * *

بمجـــرد ولوج البعوة إلى الساحة كاد أن يغشى على رينة من الرعب، وهمـــت بـــأن تصرخ أو تغادر الساحة لتنجو بجلدها، ولكن دخول عمران إلى الســـاحة مباشـــرة في أعقاب البعوة، أشعرها ببعض الطمأنينة فاستمرت في رقصها المرتبك، وحرصت أن تبتعد بقدر الإمكان عن البعوة، كما حرصت ألا تعطي البعوة قفاها تحت أي ظرف من الظروف.

وبالطبع فإن هروب رينة من الساحة لم يكن ممكناً حتى لو أرادت، ذلك أنـــه بمجـــرد ولـــوج البعوة ثم عمران الساحة، عمد الرجال إلى تشكيل حلقة حولهـــم لمنع البعوة من الهرب، فعل الرجال ذلك دون أن يتوقفوا عن الغناء، ودون أن يتوقف الفتيان عن ضرب الدفوف، ثم عم الحماس النسوة بدورهن فارتفعـــت الـــزغاريد، وتركت بعضهن أماكنهن وهرولن ليشكلن حلقة أخرى خلف الرجال، ثم يحاولن التطلع من بين الأعناق على ما يجري في الساحة.

ويـــبدو أن الـــبعوة فطنـــت إلـــى ما يجري حولها، فتوقفت برهة عن الـــرقص، وأخذت تتطلع إلى الطوق المضروب حولها، ثم راحت تمعن النظر فـــي عمـــران، وتوقع الشيخ عبيان أن تختفي البعوة فجأة كما ظهرت فجأة، فـــرفع عصـــاه يشـــير للرجال بإحكام الحصار وسد الثغرات، وكان عمران قد اقترب كثيراً من البعوة في تلك اللحظة، ولكن البعوة كانت تبتعد عنه خطوتين كلما اقترب منها خطوة.

اســـتحكمت الحلقـــة حـــول الـــبعوة، فعادت إلى الرقص من جديد، كان رقصـــها عصـــبياً كـــرقص الزار، وازدادت عصبيتها بعد أن عمد الرجال إلى تضـــييق الحلقـــة حولها أكثر فأكثر، حتى أصبحت المساحة التي يرقص فيها الـــثلاثة محـــدودة للغايـــة، وكان معنى هذا أن يزداد الخطر على رينة، إذ أن

قــدرة ريـــنة علـــى المناورة أصبحت محدودة أيضاً، وازداد شعورها بالرعب حتى همت أن تصرخ طلباً للنجدة، ولكن عمران أعفاها من ذلك باقترابه أكثر وأكــثر مـــن الـــبعوة، وعندها عمدت رينه إلى مد يدها متظاهرة برغبتها في مصـــافحة البعوة، فعلت ذلك حتى تبعد انتباه البعوة عن عمران، الذي اقترب مـــن الـــبعوة لدرجـــة كانـــت كافية كي تمتد يمناه لتلمس رأس البعوة وتشد مسفعها إلى الأرض.

فعل عمران ذلك بسرعة مذهلة.. ويبدو أن الرجال لم يتوقعوا أن يحدث ذلـــك بهـــذه الســـرعة.. فحبســـوا أنفاسهم وتراجع بعضهم مرتاعاً.. فارتدت النســـوة بدورهـــن.. وترقب الجميع أن تصرخ البعوة ثم تتحول إلى كرة من نار.. وقد حدث هذا بالفعل.. إذ أطلقت البعوة صرخة مرعبة ارتجت لها بيوت العوازم.. وسقطت رينة مغشياً عليها.. فانفرط عقد الرجال.. وتدافعت النسوة في كل اتجاه.

أمـــا الـــبعوة نفســـها فقد تكورت.. ثم استحالت خفاشاً أسود في حجم النســـر.. أخـــذ يرفـــرف فوق الرؤوس الهلعة.. ثم انطلق ليختفي في السماء المظلمة.. بينما هرع من تبقى من العوازم إلى إطفاء النيران التي اندلعت في عمران.

العرجاء

لـم يجـدوا شـبهة جنائـية واحدة.. فأغلقوا الملفْ.. وصرحوا بدفن الجـثة.. ذلـك أن اسمها كان في كشف الركاب على العبارة شمس الأصيل.. كمـا أكـد سـالم حمـاد أنهـا كانت معه على سطح العبارة قبل لحظات من اصطدامها بالشعاب المرجانية. ولكن الذي حير الشرطة هو أن العبارة غرقت أمـام ميـناء سـفاجا، والمسافة بين سفاجا والغردقة تبلغ ستين كيلومتراً.. فكيف تحركت الجثة كل هذه المسافة؟!

أمـا الرشـندية فكانوا أكثر حيرة، فهم يعلمون أن الغريق يظل في قاع الـبحر ثلاثة أيام حتى تلفظه الأمواج في اليوم الرابع.. وهم يعرفون أيضاً أن الـبحر يلقي بجثة الغريق عادة في مواجهة المكان الذي غرق فيه.. ولكن في حـالات نـادرة، عـندما تشتد الرياح مثلاً، فإن التيارات البحرية قد تنحرف بالجـثة لبضـعة كيلومـترات جنوباً أو شمالاً، ليس أكثر من ذلك.. تلك سنة بحرية سرمدية لا تتغير.

اسـتجوبت الشـرطة عشرات الركاب.. بل واستدعت كل من له دراية بشـئون البحر.. وأخيراً لجأت إلى الدكتور مدير معهد علوم البحار بالغردقة، الـذي أكـد ما زاد من حيرتهم، بقوله أن الجثة لا يمكنها أن تتحرك كل هذه المسـافة إلا بفعل فاعل.. ولما سئل عن احتمال أن تتسبب الرياح أو التيارات الـبحرية فـي تحريك الجثة نفى ذلك بشدة، وقال أن الرياح في البحر الأحمر تهـب عادة من الشمال إلى الجنوب في حين أن الجثة تحركت من سفاجا إلى

الغردقة أي تحركت من الجنوب إلى الشمال، وهو ما ينفي مسئولية الرياح أو التيارات البحرية في ذلك.

* * *

سلمى عجوز قصيرة وضئيلة الحجم كأغلب نساء الرشندية.. ذات وجه أســمر مستطيل.. وعينين صغيرتين باهتتين.. وقد كنيت بالعرجاء لأن إحدى رجليها أقصر قليلاً من الأخرى.

لــم تكــن سلمى ترى أحداً يمر أمام عشتها إلا وتدعوه لتناول الشاي.. كــان الــبعض يقــبل دعوتها.. بينما يعتذر البعض الآخر.. لأنهم يدركون أن كرمها لا يقف أبداً عند تقديم الشاي.. إذ لا يخرج الضيف من بيتها إلا محملاً بهديــة.. بضع بيضات من دجاجاتها.. أو كوز لبن من عنزتها.. وهي لا تعدم ذلك أبداً.. فإن عدمت اللبن لا تعدم البيض.. وإن عدمت كليهما لا تعدم التمر الناشــف.. كما لا تعدم فسيخ البربوني الذي تحتفظ به دوماً في برميل خشبي صغير.

وللبربونـــي قصـــة مـــع العــرجاء.. فلوقت طويل جداً لم يكن لأسماك البربونـــي أي قـــيمة مقارنة بالأسماك الأخرى.. بل كان الشائع بين الرشندية وســكان الغردقة عموماً أن البربوني من أردأ الأسماك طعماً.. لذلك فقد كان الرشــندية يبيعونه بأبخس الأثمان.. ولكن لا يدري أحد ما الذي دفع العرجاء ذات يــوم إلى أن تجرب أن تصنع من البربوني فسيخاً.. ولم تكن تدري حتى هــذه اللحظة كيف يتم تفسيخ الأسماك.. ثم خطر لها أنها ساعدت أم سليمان ذات مــرة في تفسيخ البوري.. وتذكرت أن الأمر لن يحتاج سوى إلى بعض الملح والشطة والزيت.. فلم لا تجرب؟

بـــادرت العــرجاء بتفسيخ أربع سمكات بربوني فقط.. وبعد بضعة أيام تناولـــت واحـــدة مـــنها فأعجبتها.. فتشجعت وأهدت الباقيات للنسوة.. وكان ســـرورها عظيماً عندما أرسلت إليها النسوة يطلبن المزيد.. ثم أهدتها إحدى النســـوة برمـــيلاً خشـــبياً خصيصـــاً لتفسخ فيه البربوني.. وكان الشائع بين الرشـــندية أن التفسيخ لا يصلح إلا لأسماك البوري فقط.. ورغم ذلك استمرت العرجاء في تفسيخ البربوني بكميات أكبر قليلاً.. تتناول بعضه وتهدي معظمه للجيران.. وسرعان ما اشتهرت بين الرشندية بأنها تضع مع البربوني خلطة ســـرية لا يعـــرفها سواها.. وإلا ما الذي يجعل البربوني الرديء يستحيل بين يديها إلى فسيخ لذيذ يشتهيه الناس؟!.

تســـامع تجـــار الفســـيخ بما يشاع عن امتلاك العرجاء لخلطة سرية.. فزارها أحدهم وعرض أن تقوم بتفسيخ البربوني في مستودعه.. ولأن حريم الرشـــندية لا يعملـــن لـــدى الغرباء مهما بلغ فقرهن.. فإن العرجاء رفضت عرض التاجر.. ولكن أمام إلحاحه قبلت أن يأتي التاجر بأسماكه وبراميله إلى عشـــتها.. وقـــد فهـــم التاجر من ذلك أنها تريد أن تحتفظ بخلطتها السحرية سراً.. فوافق.. ونفحها مبلغاً كبيراً من المال تبرعت بمعظمه لفقراء النجع.

لـــم يمـــض وقـــت طويل حتى تسامع الزبائن بفسيخ البربوني اللذيذ.. فتكالـــبوا علـــى شـــرائه من التاجر.. وتمادى التاجر في جشعه فرفع أسعار البربونـــي.. وانتقلـــت العدوى إلى بقية التجار فرفعوا أسعاره بدورهم.. حتى فاقت أسعار البوري وجميع الأسماك الأخرى.

ورغـــم أن موســـم البربوني يقتصر على ثلاثة أشهر في العام.. تغادر فـــيها أســـراب البربونـــي أوكارهـــا بأقصـــى الجنوب.. وتتجه شمالاً صوب

الغـــردقة.. مـــروراً بســـفاجا أولاً.. فـــإن العرجاء كانت تغنم في هذه الأشهر المعـــدودة مـــا يقـــيم أودهـــا طوال العام.. ومع ذلك لم تكن المرأة تركن إلى الكسل.. بل كانت تواصل عملها في خدمة جيرانها بلا مقابل.. فتهرع للخدمة فـــي المآتم والأعراس.. وتقوم على خدمة النسوة المريضات حتى يتعافين.. لذلك كان من المألوف أن يصادفها الرشندية وهي تحجل في أرجاء النجع في الصباح الباكر أو في أنصاف الليالي.

* * *

عـــندما أخـــبرت العرجاء أقاربها أنها قد عزمت على الحج ذلك العام.. تسابق أهل النجع كلهم إلى مساعدتها بما يعينها على السفر.. وتطوع أحدهم بصـــبغ واجهة عشتها بالجير الأبيض مجاناً.. بينما تطوع آخر برسم زخارف جمـــيلة علـــى الواجهـــة بمناسبة حجها المبرور.. ولقد سرت العرجاء كثيراً بذلـــك.. وبيتـــت النية على أن تشتري لهم جميعاً طواقي وسجاجيد صلاة من الأرض الطاهرة.

وفـــي الـــيوم الموعود لعودة الحجاج اكتظ ميناء سفاجا بالمستقبلين.. ومـــن بيـــنهم عـــدد كبـــير من رجال ونساء الرشندية.. متأهبين لاستقبالها بالبـــيارق وجريد النخل.. وكان على العبارة "شمس الأصيل" قبل أن تدلف إلى ميـــناء سفاجا أن تجتاز بحذر ممراً ضيقاً يعج بالشعاب والصخور المرجانية.. ولكـــن لأن الحـــذر لا يغني عن القدر.. فقد اصطدمت مقدمة العبارة بصخرة مرجانـــية صـــلدة خلفـــت فيها فجوة كبيرة اندفعت منها المياه إلى جوفها في عـــنف.. فطـــيرت العـــبارة رسائل الاستغاثة.. وهرعت قوارب خفر السواحل لإنقـــاذ الركاب... وأمكن بالفعل إنقاذ أعداد كبيرة منهم.. ولكن العرجاء كانت

واحــدة ممـــن ابتلعهم البحر.. واستمر البحث عن جثثهم أسبوعاً كاملاً دون جدوى.

وفـــي نفس اليوم الذي أعلن فيه قائد فريق الإنقاذ في سفاجا أن الجثث المفقــودة وقعــت غالـــباً فريسة لأسماك القرش الجائعة.. كان بعض صيادي الرشـــندية ينصـــبون كمائـــنهم فـــي الغــردقة لأسراب البربوني الزاحفة من الجـــنوب.. إذ تصـــادف أن الـــيوم يوافق بداية موسم البربوني.. وقد دهش الرشـــندية مـــن أن الصـــيد في اليوم الأول كان وفيراً.. على غير المعتاد في بدايـــة الموسم.. وضاعف من دهشتهم أن شباكهم المتخمة بالبربوني خرجت وهـــي تحتضـــن جســـداً بشـــرياً لم يجدوا صعوبة كبيرة في التعرف عليه.. العـــرجاء بشحمها ولحمها وثيابها كاملة.. جثة طبيعية لا يبدو عليها أي أثر لبقائها في مياه البحر لأسبوع كامل.

لم يستسلم الرشندية طويلاً للدهشة.. بل سارعوا بإبلاغ الشرطة.. التي عاينـــت الجثة ثم قبضت عليهم جميعاً.. واحتجزتهم طوال أسبوعين كاملين.. وكـــان الســـؤال الوحـــيد الذي تبحث الشرطة عن إجابة له هو: كيف وصلت الجثة من سفاجا إلى الغردقة؟!

ولكـــن الشـــرطة لم تصل إلى شيء.. فاضطرت إلى إطلاق سراحهم.. وتـــبع ذلك أن صرحت النيابة بدفن الجثة.. ثم تناسى الرشندية الأمر برمته.. خاصة بعد أن هل موسم البربوني الجديد.. فانشغلوا بنصب الكمائن لأسرابه.

ولكـــن في ذلك الموسم.. بل وفي كل المواسم التالية.. لاحظ الرشندية أن أسراب البربوني قد تضاءلت إلى حد كبير.. ورغم أن ذلك كان كفيلاً برفع أسعاره فإن ما حدث كان على النقيض تماماً.. إذ أخذت أسعاره في الانخفاض

تدريجــياً.. خاصة بعد أن ردد البعض أن طعمه لم يعد لذيذاً.. بل عاد رديئاً.. تماماً كما كان أيام زمان.. قبل أن تأتي العرجاء بخلطتها السحرية.

صابغ أذنيه بالدم

أذنـــاه حمراوان كأنهما مصبوغتان بالدم.. بل يؤكد العم صالح أن أذنيه مصـــبوغتان بالدم فعلاً.. العم صالح هو أكثر شيوخ النجع ذكراً لصابغ أذنيه بـــالدم.. وهـــو يؤكد أنه الوحيد من أهل النجع الذي تصادف وأن رأى صابغ أذنـــيه بـــالدم مرتيـــن خلال عمره المديد الذي يقترب من التسعين.. مرة من بعـــيد.. وأخـــرى أقترب فيها منه كثيراً وهم بمصافحته.. فلما تبين شخصيته ارتد مذعوراً ثم لاذ بالفرار.

الجالســـون حـــول العـــم صالح يفغرون أفواههم.. فيعرك إحدى عينيه المعطوبتين.. ثم يحكي:

في المرة الأولى كنت في الثلاثين، الوقت بعد منتصف الليل، كان القمر بـــدراً، لم تكن عيناي معطوبتين، كانتا كعيني صقر، دخلت النجع من الشرق، يقولهـــا وهو يشير بإصبعه إلى الغرب، ثم يتدارك الخطأ فيعاود الإشارة بنفس الإصبع إلى الشرق.. نعم.. نعم.. دخلت النجع من الشرق.. كان البرد قارصاً، فـــي شـــهر طوبة ربما، كنت عائداً من الصيد في موسم الدراك، وعلى كتفي جوال السمك.

بعـــد أن تجـــاوزت دار حسان، وأشرفت على النجع، رأيت صابغ أذنيه بـــالدم، خلته لصاً.. أو غريباً ضل طريقه، ليلتها توقف صابغ أذنيه بالدم على عتـــبات أربع من الدور، وكأنما كان يقصد تلك الدور دون سواها، كان صابغ أذنيه بالدم يقف على عتبة الدار، ثم يضع وشمه الدموي على بابها، ثم يعرج

إلى دار أخرى، ليلتها ترك وشمه على أبواب الدور الأربع، دون أن يشعر به أحـــد مـــن ســـكانها، ثم واصل سيره متباطئاً صوب الغرب حتى اختفى وراء الجبل، وفي هذه المرة أشار العم صالح بإصبعه نحو الغرب دون أن يخطئ.

فشـــلت محاولاتـــنا في أن يفصح العم صالح عن أسماء أصحاب الدور الأربعـــة، فـــنط أحدهم من جلسته وصاح أنه يعرفهم اسماً اسماً، فزجره العم صالح بإشارة من كفه، ليلزم الصمت.

وفـــي المـــرة الثانـــية، والحديث لا يزال للعم صالح، كنت قد تجاوزت الســـتين، كـــنا في موسم البربوني، عدت إلى النجع في غبشة الصبح، دخلت من الجهة البحرية، وفي هذه المرة تقابلت مع صابغ أذنيه بالدم وجهاً لوجه، كـــان خارجـــاً لـــتوه، كما تراءى لي، من خلف بيوت الرواشد، وتم لقائي به بغـــتة، فظننـــته من رجال الرواشد، وهممت بإنزال الجوال كي أصافحه، فلما تبينـــت أذنيه المضرجتين بالدم، ورأيت الدم يتقاطر منهما على كتفيه، ألقيت بجوالي وسلمت ساقي للريح.

وهـــنا نط نفس الشخص الذي يجالسنا ليقول أنه سمع هذه الحكاية من أبـــيه، وأن صابغ أذنيه بالدم وضع وشمه في تلك الليلة على أبواب عشر من الدور، ولم يعلق العم صالح، بل اكتفى بأن أومأ برأسه موافقة على ما سمع.

* * *

ثلاثـــة جـــزر صغيرة تصطف متجاورة.. درج الصيادون على تسميتها بالفـــنادير.. والفـــنادير يمكـــن رؤيـــتها بوضوح من ساحل البلدة، ويقصدها الصـــيادون عادة لنصب الشراك لأسراب الحريد والسيجان التي تجد في المياه المحيطة بها مرتعاً خصباً لها.

الجزيـــرة الوســـطى مـــن جـــزر الفنادير هي الأكبر بين الجزر الثلاث، ويطلـــق عليها الصيادون (أم قبر)، ففوق رمال تلك الجزيرة يرتفع شاهد قبر قديم، مجرد شاهد خشبي أسود لونه بفعل الزمن والرطوبة، لا أحد يجهل اسم صاحب القبر.. عايض.. هذا هو اسمه.. الجميع يقرأون له الفاتحة كلما مرت قواربهـــم بالجزيرة.. أما قصة القبر فلا يبدو أن أحداً يعرف كل تفاصيلها كما يعرفها العم صالح.

يقـــول العـــم صـــالح أن عـــايض قتل بالقرب من الجزيرة وهو يتصيد الحـــريد، ويقـــول أن كـــلاً من القاتل والمقتول كانا في قاربين منفصلين، ثم اقـــترب القاتل بقاربه من قارب المقتول.. وتبادلا الحديث لبعض الوقت.. كان كل لا يزال في قاربه.. ولسبب غير معروف انتقل أحدهما من قاربه إلى قارب الآخر، وعندما اجتمع الرجلان في قارب واحد وقعت الجريمة.. قتل عايض.. وألقـــي بجثـــته في البحر.. ثم جرفها التيار إلى شاطئ الجزيرة، وظلت الجثة ملقـــاة فـــي مكانها حتى هبط إلى الجزيرة من قام بدفنها، ووضع على القبر شاهداً من أخشاب القوارب التي تحطمت على ساحل الجزيرة.

تلـــك قصـــة القـــبر ذي الشاهد الخشبي كما يرويها العم صالح، وهذه القصـــة تجـــد لهـــا قبولاً بين أغلب الصيادين، أما القاتل فيختلفون كثيراً في تحديد هويته، كما يختلفون في تحديد الدوافع التي حدت به لارتكاب جريمته، هـــناك حكايـــات كثـــيرة تـــدور في النجع، بعضها يتشابه، وبعضها يتناقض، شـــخص واحـــد فقط يعرف الحقيقة النقية، العم صالح، هكذا يقول العم صالح نفســـه، ويدلل على صدقه بقوله أنه كان ضمن جماعة الصيادين الذين عثروا على الجثة ودفنوها، ويقول أنه كان حينئذ فتى في العشرين، ثم يصمت برهة

ويقـول أن الجـثة كانت مقطوعة الأذنين، وقبل أن يعقب أحدنا أو يعرب عن دهشـته.. يلقى العم صالح في وجوهنا بمفاجأة أخرى.. القاتل اسمه جمعان.. نعم جمعان.

* * *

تكـاد تتلاصق بيوت النجع على سفح الجبل الذي يحد البلدة من الغرب، وكل من يعرج إلى النجع لا يمكنه أن يخطئ في أن قاطنيه من الصيادين، من السـهل أن يـدرك ذلك من عظام الأسماك المتناثرة في أرجاء النجع.. ومن شـباك الصـيد المهـترئة الملقاة فوق الأسطح الواطئة.. وكذلك من نجمات البحر، التي تجلب الحظ، والتي تزدان بها أبواب الدور.

وفـي مثل هذا النجع لا يستطيع العاشق أن يلتقي بمعشوقته إلا خلسة أو تحـت سـتار الليل، وهذا بالضبط ما دأب عليه جمعان، يحكي العم صالح، فقـد دأب علـى أن ينسل لدار عايض تحت ستار الليل، ليغذي علاقة محرمة ترعرعـت بيـنه وبين امرأة عايض، ودامت هذه العلاقة زمناً طويلاً دون أن تنكشـف، إذ لم يكن جمعان يتستر بالليل فقط، بل كان يحسن اقتناص الأوقات المناسـبة لذلك، وأنسب الأوقات بالقطع هي تلك التي تأتي في المواسم.. وما أكثر مواسم البحر.. موسم الناجل.. موسم الفارس.. موسم البربوني.... لكل سـمكة موسـم يطيب فيه صيدها ويعود على الصيادين بالرزق الوفير، وفي تلـك المواسـم يكاد يهجر الرجال دورهم لينكبوا على الصيد قبل أن ينقضي الموسم، وغالباً ما يقبلون على الصيد ليلاً أكثر من الصيد نهاراً، فالليل يقيهم حرارة الشمس، كما يقي صيدهم من التلف، والليل يجعل الأسماك أكثر شهية وأكثر انقياداً لالتهام الطعم من السنارة.

ولأن مواســم الــبحر كثيرة، فإن الليالي التي كان عايض يهجر خلالها داره كانــت أكــثر مــن تلك التي يلزم فيها الدار، ومن هناك لم يكن جمعان يواجــه ثمــة صــعوبة في التسلل لدار عايض في أية ليلة من تلك المواسم. ويقول العم صالح أن سر العلاقة الآثمة بين جمعان وامرأة عايض لم ينكشف إلا بعــد مــدة، ففي البدء انتاب الشك بعض الجيران، ثم لم يلبث أن استحال الشــك إلى يقين، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى سرى الخبر اليقين من الجيران إلى بقية أهل النجع، فكثر اللغط في مجالس الرجال والنساء على حد ســواء، وخشيت زوجة عايض من أن يصل الخبر لزوجها، فباحت بهواجسها لجمعــان، وتوســلت إلــيه أن يقــيها شراً هو واقع لا محالة، فاستجاب لها جمعان، وجرى ما جرى على ساحل الفنادير. وقبل أن يعثر على الجثة اختفى جمعــان، واختفت امرأة عايض، بعد أن خلفت وراءها منديلاً مدمماً به أذنان مقطوعتان.

* * *

بقيــت دار عــايض مهجورة لبضعة شهور دون أن يقترب منها أحد، وتشــاءم الجــيران منها بعد أن لاحظوا أن وشماً كبيراً من الدم قد طبع على بــاب الــدار، لــم يعرفوا من أين أتى هذا الوشم، ولم يتمكنوا من إزالته إلا باقــتلاع الــباب ذاته وإلقائه في النار، ولكن الوشم الدموي عاد للظهور من جديد فوق واجهة الدار، فلما هدم الجيران الواجهة، عاد الوشم للظهور فوق الحوائــط الأخــرى، فشــرع الجيران في هدم الحوائط، حائطاً بعد آخر، حتى انتهى الأمر بهدم الدار بأكملها.

ورغــم هدم الدار، فإن لعنة الوشم الدموي لم تنقطع عن النجع، إذ عاد

الوشــم بعــد بضــع ســنوات ليظهر فوق أبوب بعض الدور المجاورة، فكان أصــحاب الدور يحرقون الأبواب ويستبدلونها بأخرى، ولكن سرعان ما يعاود الوشــم الظهــور فــوق أبــواب مزيد من الدور.. وهكذا دواليك.. يقول العم صالح.

ولا ندري ما الذي حدا بالعم الصالح أن يتوقف فجأة عن الكلام عند هذا الحــد.. إذ عــاد يعــرك عينــيه المعطوبتين.. ثم طلب منا أن نساعده على الــنهوض، وأن نقــتاده إلــى داره، بعــد أن وعدنا بأن يكمل لنا الحكاية في الصــباح، ولكــن الحكاية لم يقدر لها أبداً أن تكتمل، ففي صباح اليوم التالي فتح أهل النجع عيونهم على أبواب دورهم وقد وشمت جميعها بالدم.

دار واحــدة فقط نجت من لعنة الوشم.. وهي دار العم صالح.. ولسوء الحــظ فــإن العم صالح لم يكن حاضراً كي يعقب على ما جرى.. إذ وجد هو نفسه ميتاً في فراشه.. وقد تجلل ثوبه بوشم كبير جداً من الدم.

وهو أيضاً يحب عرائس البحر

فـــي الجــنوب، وفـــي شـــرم الناقة على وجه التحديد، على بعد بضعة كيلومـــترات مـــن الشاطئ، كان قد فرغ تواً من جذب البروسي وألقى به في بطـــن القارب، ثم أدار المحرك، وصوب مقدمة القارب صوب الشمال، مُحاذراً الشعاب المرجانية الخطرة، التي يعرف مواقعها جيداً.

الوقـــت بعـــد العصر بقليل، وكان يعرف أنه لن يدخل مرسى الصيادين بالغردقة إلا بعد صلاة العشاء، هو شخصياً يفضل ذلك، إذ كان من ذلك النوع مـــن الصيادين الذين لا يحبون أن يطلعوا أحداً على حصيلة صيدهم، والدخول إلى المرسى ليلاً سيحقق له ذلك، بمجرد أن يدلف إلى المرسى سيهبط بثلاثة أجولـــة معـــبأة بالأســـماك، لـــن يكون بالمرسى عدد كبير من الناس في ذلك الوقت، ثلاثة أو أربعة صيادين على الأكثر.

انقضـــت فـــترة ســـكون الرياح، التي استمرت ثلاثة أيام، وبدأت طلائع ريـــاح الأزيـــب تهب من الجنوب، وهذا ما سيساعده في الإبحار شمالاً صوب الغـــردقة، فقاربـــه الجديد لا يزال محتفظاً بأشرعته، حتى بعد أن قام بتجهيزه بمحـــرك حديث بقوة أربعين حصاناً، فقد دأب على استخدام الأشرعة في كثير من الأحيان، خاصة عندما تهب الريح صوب نفس المكان الذي يقصده، حينئذ يكتفي برفع الأشرعة، ويبقي محركة ساكناً، حفظاً له، وتوفيراً للوقود.

لكـــن عـــندما اشـــتدت ريـــاح الأزيب، ولفحت وجهه بسخونتها، أنزل الأشرعة، وأدار المحرك، فسرعة المحرك تفوق سرعة الرياح مهما اشتدت،

والســـرعة مطلوبة في هذه المرة بالذات، ففي ظل الحرارة التي ترافق رياح الأزيـــب ســـتتعرض حصيلته من الأسماك للتلف، خاصة لو تأخر في الوصول إلى المرسى.

* * *

بعـــد أن تـــوارت الشمس خلف جبال الساحل الغربي، تراءت له الحافة الجنوبـــية لجزيـــرة جفتون، لم يجد ثمة صعوبة في رؤيتها بوضوح، إذ كانت اللـــيلة توافـــق الرابع عشر من شهر ربيع أول، وكان القمر مزهواً باكتماله، فواصـــل أبحـــاره صـــوب الشمال، وقدر أن ما تبقى له من وقت لن يتجاوز الساعتين، بعدها سيكون على مشارف مرسى الصيادين بالغردقة، وقدر أيضاً إن الـــتلف لـــن يلحـــق بأسماكه خلال هذا الوقت القصير، فقد وضع الأسماك بعـــناية فـــي أربعة صناديق خشبية، وقام بتوزيع ألواح الثلج بالتساوي على الصـــناديق الأربعـــة، ولم ينس أن يغطي الصناديق بأجولة الخيش، كي تعزل الأسماك عن رياح الأزيب الحارة.

كـــان الصمت مطبقاً على الأجواء، إلا من صوت المحرك، ومن صوت تلاطـــم الأمـــواج الصـــغيرة على جانب القارب، فأخذ يدندن بأغنية قديمة من أغانـــي الصيادين، ولكنه لم يكملها، إذ توقف فجأة عن الدندنة، عندما ارتفع مـــن مؤخـــرة القـــارب صوت يشبه القرقعة، انحرف القارب بعدها قليلاً إلى اليسار، وتباطأت حركته، فأوقف المحرك على الفور.

بحكم خبرته أدرك أن تلك القرقعة لا تحدث إلا من مروحة الرفاص، فقد تصـــادف معـــه أكـــثر مـــن مـــرة أن مروحة الرفاص، في حركتها الدائرية المتواصـــلة، كثـــيراً ما تصطدم بأحد الدلافين، النتيجة المؤكدة لذلك هي موت

الدلفيــن، أو إصـــابته بجرح خطير على الأقل، ويرافق ذلك فيأحيان كثيرة أن يلحق الضرر بمروحة الرفاص ذاتها.

فكـــر أن يخلـــع ثوبه، وأن ينزل إلى الماء كي يتفحص المروحة، ولكن قـــبل أن يفعل طفى فوق الماء جسم كبير، خمن أنه دلفين، تطلع إليه، فبدا له بـــالفعل كدلفين ضخم، يزيد طوله عن المترين، ولكن عندما أمعن النظر تأكد أن مـــا يراه لم يكن دلفيناً، بل انثى عروس البحر، عرف ذلك من ذيلها الكبير الـــذي يشـــبه حـــدوة الحصان، ومن الزعنفتين الوحيدتين في أعلى الجسم، واحدة جهة اليمين، وأخرى جهة اليسار.

تملكه القلق، وأخذ يفكر بسرعة، فكر في الضرر الذي يمكن أن يكن قد لحق بمروحة الرفاص، رغم أنه لم تكن لديه أي مشكلة في مواصلة الإبحار، إذ يمكنه أن يعتمد على الشراع، فالشراع وحده كفيل بأن يصل به إلى وجهته ســـالماً، خاصـــة مـــع هـــبوب رياح الأزيب التي ترافقه رحلته شمالاً صوب الغردقة.

ولكـــن رغـــم ذلـــك لم تنحسر لديه حدة القلق، إذ كان يتمنى ألا يكون الضـــرر قـــد لحق بالمروحة، فالمحرك لا يزال جديداً، وقد دفع للحصول عليه مـــبلغاً كبـــيراً، ولا تزال هناك أقساط عديدة عليه أن يدفعها بانتظام كي يسدد ثمـــنه بالكـــامل، لذلـــك شرع على الفور في خلع جلبابه، وقفز إلى الماء، ثم غـــاص بالقـــرب من مؤخرة القارب حتى أمسك بيده مروحة الرفاص، وأخذ يـــتفحص الريش بأصابعه، واحدة بعد أخرى، ريشة، إثنتان، ثلاث ريش كاملة وســـليمة، وهو ما يعني أن الضرر لم يلحق سوى بعروس البحر، التي كانت لا تـــزال طافية فوق الماء دون حراك، وهو ما أوحى إليه بأنها قد ماتت فور

أن ضربتها المروحة.

بعـد أن اطمـأن لسلامة المروحة عاد يتطلع إلى عروس البحر، التي دفعـت بها الأمواج حتى كادت تلتصق بالقارب، نظر طويلاً إليها، وفكر كيف يمكـنه أن يستفيد منها، واستبعد فكرة أن يقوم برفعها إلى ظهر القارب، فهو لـن يستطيع بمفرده أن يفعل ذلك، كما استبعد فكرة ربطها بحبل وجرها خلف القـارب، فعـروس الـبحر لـن تبقى طافية حتى يصل إلى المرسى، إذ من المحـتمل أن تغـوص أحـياناً تحـت وطأة وزنها، وهو الأمر الذي قد يقلب القارب، أو على أقل تقدير يشكل عبئاً كبيراً لا يحتمله المحرك، ناهيك عن أنه لن يستطيع أن يدخل إلى المرسى بمثل هذا المخلوق البحري، وهو يعلم جيداً أن قوانيـن الصـيد تحرم صيد عرائس البحر باعتبارها من الكائنات البحرية النادرة.

وكـان الحـل الذي استقر عليه هو أن يربط العروس بحبل إلى جانب القـارب، يـربطها إلى الرمانة اليسرى أو اليمنى، وأن يعرج بها إلى جزيرة جفـتون، التي كانت قريبة منه في تلك اللحظة، وهناك يقوم بسحب العروس إلـى شاطئ الجزيرة، ثم يقوم بسلخها، وينقل إلى القارب أكبر كمية من اللحم يمكـن أن يحـتملها قاربه، وهذا هو ما حدث بالفعل، فقد أدار المحرك، ودفع بالدفة يساراً، فانحرفت مقدمة القارب يميناً صوب الجزيرة.

* * *

أوقـف قاربه على بعد عشرة أمتار تقريباً من شاطئ الجزيرة، لم يكن بإمكانـه أن يتقدم أكثر من ذلك، فهو مثل أي خبير بشئون البحر يعرف جيداً مـتى يقف ومتى يتقدم، وهو يعرف أنه لو تقدم متراً واحداً أكثر من ذلك فإن

غـاطس القـارب سيصطدم بالقاع، الذي يحفل بشعاب مرجانية خطرة تطوق الجزيرة من جميع الاتجاهات.

لـم يشـأ أن يضـيع وقتاً، إذ كان متعجلاً للوصول إلى الغردقة قبل أن تفسد حمولة قاربه من الأسماك، وكان لا يزال بسرواله بعد أن خلع الجلباب، فاخـتار أطـول حـباله على ظهر القارب، وقفز إلى الماء، ثم طوق به رقبة عـروس البحر، بعد أن حررها من الحبل الآخر الذي يربطها بالقارب، وشرع يخـوض في الماء صوب الشاطئ، وهو يشد السمكة خلفه، وعندما وصل إلى الشاطئ استدار إلى الخلف، ثم غرس قدميه في الرمال، وواصل جذب السمكة نحـوه بكـل ما يملك من قوة، كانت المياه بالقرب من الشاطئ ضحلة، فشعر بـثقل السـمكة، ومع ذلك واصل الجذب، حتى تمكن من جذب أكثر من نصف السمكة إلى الرمال الناعمة.

بعدهـا جلس إلى الأرض يلتقط أنفاسه، ودار برأسه يتفقد الجزيرة من حوله، كانت الجزيرة خالية تماماً، وكان الشاطئ مليئاً بقناديل البحر وأعشاب القيصـار التـي رمت بها الأمواج، كما لمح عدداً كبيراً من الجحور المتناثرة في أرجاء الشاطئ، وأعداداً أكبر من الكابوريا التي تخرج منها أو تعود إليها في ضوء القمر.

فكـر أن يقوم بجولة استكشافية على الشاطئ، بحثاً عن آثار السلاحف التي تدفن بيضها في الرمال، تمنى أن يعثر على كمية كبيرة من البيض، وأن يحملـه معه لزوجته، فزوجته تحب بيض السلاحف، وهو كذلك يحبه، بيضة واحـدة منه كفيلة بأن تشعره بالشبع، وبيضتان كفيلتان بأن توفران له نشاطاً متوافراً طوال الليل مع زوجته، وربما لهذا السبب لا تكف زوجته عن تذكيره

بالبحث عن بيض السلاحف كلما نزل إلى البحر.

انفرجــت شفتاه عن ابتسامة وهو يتذكر آخر مرة نام فيها مع زوجته، بعــد أن تناول بيض السلاحف،هو يعرف جيداً أن زوجته ليست جميلة، فهي ســمينة أكــثر من اللازم، وأنفها مفلطح أكثر من اللازم، بل أنه لا يطيق أن يطــيل الــنظر إلى شعرها الأكرت، ومع ذلك فهو قانع بها، لأنها تعرف جيداً كيف تثيره، صحيح أنه كان يتمني أن تكون له زوجة أجمل منها، زوجة ذات أنــف دقــيق وضــفائر طويلة وعينين بسعة البحر، كان كثيراً ما يحلم بذلك، ولكــنه كــان يســتيقظ من حلمه في كل مرة لينسى الأمر تماماً، ويعود قانعاً وراضياً بزوجته، فزوجة قبيحة ممتعة أفضل من زوجة جميلة باردة.

اســتيقظ فجأة على صوت يشبه الزفير، فارتعد قليلاً، ثم خفتت الرعدة حــتى تلاشــت تماماً، فهو يعرف أن جفتون بالذات هي من الجزر التي تخلو مــن الجان والعفاريت، وقد سبق له أن نام على شاطئها أكثر من مرة بمفرده دون أن يــرى عفريتاً أو جنياً، كان الصوت لا يزال يأتيه متقطعاً، وكان يأتي من مسافة قريبة جداً منه، عندها ألقى نظرة إلى عروس البحر الممدة أمامه، فرأى أنها لا تزال تتنفس، وأنها تحاول أن تحرك رأسها يمنة أو يسرة، أمعن الــنظر إلــيها، فرأى خيطاً من الدم يسيل من جانب رأسها، وأدرك أن جرحاً أصابها جراء ضربة المروحة.

اســتغرق في تأملها، لم تكن غريبة بالنسبة له، فقد رآها قبل ذلك عدة مــرات، يحلو دائماً لعرائس البحر أن تسبح بمحازاة قوارب الصيد، غالباً ما يحــدث ذلــك عــندما تسكن الرياح وتصبح صفحة الماء مثل مرآة تتلألأ في ضوء الشمس، اعتاد الصيادون أن يلقوا إليها بعضاً من أسماكهم، فتتلقف ما

يلقـــى إليها وتواصل سباحتها إلى جوار القارب، ثم تودعهم بأن تضرب الماء بذيلها الكبير، بعدها تغوص في الماء وتختفي في الأعماق.

كـــل الصـــيادين يحبون عرائس البحر، وهو أيضاً يحبها، أمر واحد لا يعجـــبه فـــيها، وهو رأسها، فرأسها لا يعدو أن يكون مجرد كتلة متورمة بها فتحـــتان للعينيـــن، إنها باختصار مجرد خنزير، حتى الزعنفتان الكبيرتان في أعلـــى جســـمها، واللـــتان تبدوان كذراعي إنسان، تضفيان عليها مزيداً من القبح، ومع ذلك يطلقون عليها عروس البحر، لقب لا تستحقه دون شك.

ورغـــم ذلـــك كلـــه فهـــو يحبها، فعرائس البحر تصنع الكثير من أجل الصـــيادين، فهـــي التـــي تؤنـــس وحشتهم في عرض البحر، وهي التي تنقل الغرقى أو الذين يوشكون على الغرق وتلقي بهم بالقرب من الشاطئ، صحيح أن الدلافيـــن تشـــاركها في نقل الغرقى، ولكن الدلافين لا تنقل الذين يوشكون علـــى الغـــرق، الدلافين تلعب وتعبث بأي جسم ميت يطفو فوق الماء، سواء كـــان الجســـم لغـــريق أو لســـمكة ميتة، عروس البحر وحدها هي التي تنقل الغرقى حتى لا تفترسها أسماك القرش، هي كائن طيب، كائن يذكره بزوجته، فزوجـــته ليست جميلة، بل هي أقرب إلى القبح منها للجمال، ورغم ذلك فإنه يحـــبها، لأنهـــا طيبة، ولأنها تفعل الكثير من الأشياء الجميلة من أجله، يكفي أنهـــا تـــرعاه، وتـــرعى أطفاله، ويكفي أنها تؤنس وحشته، وتشده إلى عالم جميل من المتعة عندما يشعر بالسأم وتتراكم عليه الهموم.

تذكـــر أنـــه لـــم يحضـــر معـــه سكيناً ليسلخ عروس البحر، وكان من المفترض أن يهرع لإحضار السكين من القارب، فعلى متن القارب يوجد أكثر مـــن سكين، سكاكين من كل الأحجام، يحتاجها الصياد عادة لتقطيع الأسماك،

أو تقطـــيع الطعـــم، أو قطـــع الحبال، أو حتى تقطيع الخضروات التي يتزود ببعضها قبل نزوله إلى البحر، إحضار السكين لن يكلفه سوى أن يخوض إلى حيـــث يرسو القارب، بضعة أمتار ذهاباً، وأخرى إياباً، ولكن بدلاً من أن يفعل ذلـــك، قـــام يبحـــث عن قناديل البحر، التي كانت متناثرة في أرجاء الشاطئ، وأتـــى بأحدها، وشرع يدعك به موضع الجرح من رأس عروس البحر، فعل ذلـــك عدة مرات حتى توقف نزيف الدم، كان لابد من إيقاف النزيف، فقد قرر أن يعـــيد عـــروس الـــبحر إلى الماء، وعودتها وهي تنزف سيعرضها حتماً للخطر، فأسماك القرش تشم رائحة الدم من بعيد، وعندها ستشرع في البحث عن الضحية حتى تعثر عليها، ثم تتجمع حولها، ولا تبقي منها شيئاً.

وحـــتى يضـــمن توقف النزيف بشكل قاطع عمد إلى تقطيع قنديل البحر إلـــى عـــدة قطع صغيرة بأصابعه، وحشا بها موضع الجرح العميق، فهو يعلم جـــيداً أن قـــناديل الـــبحر تكـــوي الجروح، ثم تناول بيده بضعة أعشاب من القيصـــار وأدخلهـــا في فتحة الجرح، انتهى من ذلك ثم قام من فوره، وشرع فـــي جـــذب العـــروس صوب البحر، فعل ذلك بكل قوته، حتى نجح في شدها لبضـــعة أمتار في الماء، وهي مسافة اعتقد بأنها كفيلة كي يغطي الماء معظم جســـمها، بمـــا يسهل عليها مهمة السباحة عندما تبرأ، تركها هناك، بعد أن حررها من الحبل، وقفل عائداً إلى الشاطئ، ليبحث عن بيض السلاحف.

ســـار مســـافة طويلة على ساحل الجزيرة يقص أثر السلاحف، وعندما وجد أثر إحداها، تتبعه حتى توقف عند كومة من الرمل، فشرع ينبش الرمل، عـــندئذ تجلـــى له بيض السلاحف وهو يبرق في ضوء القمر، لم يكن لديه ما يحمـــل فيه البيض سوى سرواله، بعد ترك جلبابه في القارب، فخلع السروال

علـــى الفور، وفرشه على الأرض، ثم قام بجمع أكبر عدد من البيض، بعد أن عالج السروال ليصبح أشبه بالصرة.

بعدهـــا عـــاد أدراجه، وشرع يخوض في الماء صوب القارب، وبعد أن خطا بضع خطوات في الماء تلفت إلى الموضع الذي ترك فيه عروس البحر، لكـــنه لـــم يجد لها أثراً، فأدرك أنها رحلت بعد أن برأت من جرحها، فواصل خوضـــه فـــي المـــاء حـــتى بلـــغ قاربه. عندئذ أفرغ البيض في أحد الأجولة الفارغـــة، وعمد إلى ارتداء جلبابه، ثم جذب البروسي، وأدار المحرك، فانطلق القـــارب، بيـــنما جلـــس هو في المؤخرة، ممسكاً بالدفة، وهو يدندن بأغنية أخرى قديمة من أغاني الصيادين.

لـــم يمـــض وقـــت طويل على انطلاق القارب، حتى لاحظ سمكة كبيرة تـــرافقه فـــي رحلته، كانت السمكة تسبح بمحاذاة القارب من الجهة اليسرى، وعـــندما نظـــر إلـــيها، أيقن أنها عروس البحر، بل ذات العروس التي عالج جرحها على شاطئ الجزيرة، كان مسروراً لرؤيتها وهي تسبح بهذه الحيوية، فتناول سمكة وألقى بها إليها، فتلقفتها عروس البحر على الفور، فرمى إليها بســـمكة ثانية، ثم ثالثة، فرابعة، كانت عروس البحر تتلقف الأسماك وتواصل ســـباحتها بمحـــاذاة القـــارب، ولما توقف عن رمي مزيد من الأسماك إليها، ضـــربت عـــروس الـــبحر صفحة الماء بذيلها فتطايرت بضعة قناديل بحر في الهواء لتسقط في بطن القارب.

شـــعر أن عـــروس الـــبحر تناوشه، وربما تلاعبه، فقرر أن يشاركها اللعب، وأخذ يتناول ما تلقيه إليه من قناديل البحر، ويعيد إلقاءه إليها، عندئذ تضرب العروس صفحة الماء بذيلها من جديد، ليتطاير المزيد من القناديل في

الهـــواء لتسقط في القارب، فيتناولها ويلقي بها إليها، ظل يناوشها وتناوشه، خـــيل إلـــيه أنه يسمع ضحكاتها من تحت الماء، فبادلها الضحك، قهقه عالياً لعلهـــا تســـمعه، وتواصلت المناوشة واللعب بينهما حتى أشرف القارب على المضيق الذي يفضي لمرسى الصيادين.

قـــبل أن يعبر المضيق أبطأ من سرعة القارب، فسبقته عروس البحر، ولكـــنها لم تدخل المضيق، بل شرعت تطوف حول القارب، طافت حوله عدة مـــرات، ثم أبطأت من سرعتها هي الأخرى، فسبقها القارب ليدخل المضيق، بينما استدارت عروس البحر، لتواصل سباحتها صوب الجنوب.

تملكـــه شعور مفاجئ بالوحدة.. انقلب بعدها إلى شعور جارف بالحب.. شـــعر أنـــه يحـــب كل الكائنات والمخلوقات.. ويحب عرائس البحر أكثر من ســـواها.. فعـــروس الـــبحر تذكره بزوجته.. زوجته الطيبة.. شعر أنه يحب زوجـــته أكثر من ذي قبل.. وباغته شوق جارف إليها.. ثم حانت منه التفاتة للجـــوال الـــذي يحـــوي بيض السلاحف.. وتحركت يمناه لتضغط على ذراع المحـــرك لـــتزيد من سرعته.. فعلها دون أن يدري.. إذ كان مشغولاً بالتفكير فـــي زوجـــته الطيبة.. وكان يمني نفسه بليلة ممتعة في أحضانها.. ليلة أكثر حرارة من رياح الأزيب.

العشة الأخرى

هكذا يطلق عليها البعض.. بركة القروش.. ويطلق عليها البعض الآخر بركة العشاق.. رغم أنها أبعد ما تكون عن البركة.. فمياهها شديدة الزرقة.. وهو مؤشر على أنها شديدة العمق.. وهي كبيرة المساحة.. إذ تحتل دائرة لا يقل قطرها عن ستة أو سبعة كيلومترات.. وتشغل تلك الدائرة كامل المساحة التـــي تفصـــل بين صنافر وتيران.. وهو ما يعني أنه لن يمكنك أن تنتقل من إحدى الجزيرتين إلى الأخرى دون أن تعبرها.

فـــي تلـــك البركة يتجمع أكبر عدد من القروش، عدد قليل من القروش الســـوداء أو الزرقاء، وعدد أكبر من القروش البيضاء شديدة الافتراس، التي لا تـــتردد فـــي مهاجمة كل جسم يتحرك فوق سطح الماء، حتى لو كان قارباً صـــغيراً أو متوسطاً، ولذلك فقد افترست هذه القروش بالفعل عدداً كبيراً من الصيادين.

ورغم أن عبور البركة يمثل مخاطرة كبيرة، إلا أن الصيادين لم يتوقفوا أبـــداً عـــن عبورها، في طريقهم من جزيرة صنافر إلى جزيرة تيران، أو في طـــريقهم من الغردقة إلى رأس محمد عند حافة الطرف الجنوبي لسيناء، كل مـــا فـــي الأمر أن الصيادين كانوا يتحلون أثناء العبور بأعلى قدر من الحذر، وكانوا يكلفون واحداً منهم كي يجلس في مقدمة القارب، خصيصاً كي يضرب صـــفحة المـــاء بالروتان[1]، ليخيف القروش ويبعدها عن القارب، وفي بعض

---

[1] عصا طويلة تضرب بها صفحة الماء لإبعاد الأسماك عن القارب.

الأحـــيان كـــانوا يضـــطرون إلى أن يلقوا إلى الماء ببعض بقايا الأسماك، أو بعـــض أحشاء الدجاج، التي يجلبونها معهم خصيصاً لهذا الغرض، كي تتلهى بها القروش، فيتمكنوا من عبور البركة بسلام.

أمـــا هـــو فقـــد كـــان يبدو شخصية استثنائية، إذ لم يكن يهتم بترويع القروش، أو إلهائها ببقايا الأسماك، بل كان يخرج بقاربه وحيداً، وكان يكتفي بـــالجلوس فـــي منتصـــف القارب، ممسكاً بالمجدافين، ومولياً وجهه مباشرة صوب الجهة التي يقصدها.

* * *

هـــو رجـــل في أواسط العمر، في منتصف العقد الرابع غالباً، لا يختلف فـــي هيئـــته عن بقية الصيادين، يرتدي نفس الثياب، جلباب أبيض أو أزرق فـــاتح، والغـــترة البيضاء أو الرمادية التي تحيط برأسه، والتي يحرص على ربـــط طرفـــيها فـــي المؤخـــرة، أمـــا بشرته فهي ذات البشرة التي تميز كل الصـــيادين، بشرة خشنة لفحتها الشمس، حتى اصطبغت بذلك اللون الذي يقع في منتصف المسافة بين اللونين الأسمر والبني، أما ما يميزه عن غيره فهو ذلـــك الطـــول الفـــارع، والجســـد المتين البنيان، وتلك الوسامة التي تفترش وجهـــه، والتـــي تتجلى في أنف مشرع، وحاجبين سوداوين كثيفين، وعينين تتسعان للبحر بأكمله.

ويـــبدو الرجل كذلك مجرداً من الاسم، فلا أحد يعرف له اسماً، وعندما يلمحـــه الصيادون من بعيد يقول أحدهم: "ها هو ذاك"، وعندما يقترب بقاربه مـــنهم يكتفون بالتلويح له، والتلويح قد يعني مجرد التحية العابرة، وقد يعني دعوتـــه للاقـــتراب، وعـــادة ما يستجيب لهذه الدعوة، فيجدف بقاربه صوب

قاربهم حتى يلتصق القاربان، وعندئذ تجري عملية المقايضة، هو يعطيهم ما لديه بالقارب من السمك الناشف، وهم يعطونه ما يقابل ذلك من الماء والأرز والسكر والشاي والبقول.

هـذا هـو دأبه، أن يصطاد الحريد ويجففه لكي يستبدله من الصيادين بحاجته من الماء والغذاء، ثم يعود به إلى عشته على الحافة الغربية لجزيرة صـنافر، يفعـل ذلك طوال ساعاته وأيامه المتشابهة، فهو يستيقظ بعد الفجر بقليـل، لينصـب الشباك فوق الشعاب المرجانية التي تحيط بالجزيرة من كل جانـب، والتـي تنمو فوقها وبين ثناياها أعشاب القيصار البنية اللون، والتي تأتيها أسراب الحريد خصيصاً من الباحة[1]، كي تتغذى عليها.

بعـد أن ينصـب الشـباك يتحرك بقاربه الصغير، حاملاً حصيلة الحريد الجـاف، الذي قام بتجفيفه خلال الأيام السابقة، ثم يشرع في التجديف صوب الباحة، حيث دأب الصيادون على مقابلته هناك لكي تبدأ معهم عملية مقايضة جديدة، ينتهي منها في الغالب خلال ساعتين أو ثلاث ساعات، يعود بعدها إلى صـنافر، كي يتناول غداءه، الذي يتكون في الغالب من الأرز والسمك، والذي ينتهـي مـنه بسـرعة، ليتجه من فوره إلى الشباك، يشدها قطعة قطعة، ثم يفـردها علـى رمال الشاطئ، ليحرر منها أسماك الحريد، وبعد أن يفرغ من تحريـر آخـر سـمكة، يشـرع في تنظيف الشباك مما علق بها من أعشاب القيصـار، ثـم يترك الشباك مفرودة على حالها، ويتحرك ببطء صوب العشة كـي يشـرع فـي تجفيف الأسماك، وهي مهمة مضنية، تتطلب منه أن يشق

[1] الباحة : المياه العميقة .

بطـــون الأسماك جميعها، ثم يشطر كل سمكة إلى نصفين متساويين، ثم يرص الأســماك علـــى شـــكل صفوف متوازية، كل صف يتكون من عشر أسماك، تـــتراص جنـــباً إلى جنب فوق الصخور، يغطيها بكمية وافرة من حبات الملح الخشـــن، ثم يجلس قبالتها كي يطرد عنها النوارس الجائعة، ويبقى هكذا حتى تخلو السماء من طيور النورس، ويحدث هذا عادة بعد أن تغيب الشمس خلف الجـــبال الغربـــية، عـــندئذ لا يـــبقى لديه شيء سوى أن يعد عشاءه، ويتهيأ لاستقبال صبح جديد.

* * *

وجدتهم جميعاً يحكون نفس القصة، القصة واحدة رغم تعدد الرواة، لا توجـــد سوى بعض الاختلافات الطفيفة، فالجميع يتفقون على أن الرجل يعيش بمفـــرده فـــي عشة صغيرة على جزيرة صنافر، وأنه يتردد على عشة أخرى في جزيرة تيران المجاورة، وأن الرجل اعتاد أن يبيت في هذه العشة الأخيرة يـــوم الخمـــيس من كل أسبوع، ثم يغادرها إلى جزيرة صنافر قبل أن ينتصف نهـــار اليوم التالي، هكذا خبروه منذ سنوات طويلة، بل وخبروا أكثر من ذلك عنه، فهم يعرفون أن الرجل ينتقل بين الجزيرتين سباحة، يترك قاربه الصغير راســـياً علـــى شـــاطئ صنافر، ثم يلقي بنفسه في الماء، ويشرع في السباحة صـــوب تيران، مسافة ليست بالهينة، تتراوح بين ستة أو سبعة كيلومترات، يقطعهـــا فـــي ســـباحة متواصلة، يستريح خلالها مرتين أو ثلاث مرات فوق رؤوس الشـــعاب التـــي تـــبرز من فوق الماء، والتي يعرف مواقعها جيداً في طـــريقه، وفي سباحته بين الجزيرتين كان عليه دائماً أن يعبر بركة القروش، التي لا مناص من عبورها للوصول من جزيرة لأخرى، رحلة أسبوعية شاقة

لــم يــتخلف عــنها الرجل أبداً، يبدأها في نفس الميعاد، بعد ظهر الخميس، ويعود منها بعد ظهر الجمعة.

تســألهم عــن الســبب الــذي يدفع الرجل لهذه المخاطرة الأسبوعية، فــيقولون لــك أنهــم لا يعرفون لذلك سبباً، ثم يبادر أحدهم فيقول أنه يعرف الســبب، فالــرجل مــتزوج من حورية أو جنية تقيم في العشة الأخرى، وأن الحوريــة اشــترطت علــيه أن يقيم معها يوماً واحداً في الأسبوع، من ظهر الخمــيس إلــى ظهر الجمعة، وأن هذه الحورية هي التي تصر على أن يأتيها الرجل سباحة، بعد أن يترك قاربه على جزيرة صنافر.

يقــول الصــيادون أنهــم سمعوا هذه القصة من شيوخهم الأكبر خبرة بشــئون الــبحر، وهم لا يعرفون عنه أكثر من ذلك، بل ولا يعرفون له اسماً، فهو لم يفصح عن اسمه قط، ينادونه في العادة بكلمة واحدة (يا ريس)، وهي كلمــة يستخدمها الصيادون عادة مع كل صياد آخر لا يعرفون له اسماً، فيما عدا ذلك يقول الصيادين أنهم لا يعرفون أي شيء آخر عن الرجل، لا يعرفون من أين جاء، وكم عمره وكيف يمكنه منفرداً أن يصطاد ويجفف كل هذا العدد الكبــير مــن أسماك الحريد، فالرجل يرفض الإجابة على كل هذه الأسئلة، بل كثــيراً مــا يــتظاهر بالصمم، وعندما يكرر أحدهم السؤال فإن الرجل لا يفعل شيئاً أكثر من أن يشيح بيده، معرباً عن عدم رغبته في الإجابة.

وهكذا تستمر علاقته بالصيادين، علاقة منفعة متبادلة، تفتقر للتواصل، ولا تــتجاوز عملــية مقايضة أسماكه المجففة بما يحمله الصيادون إليه من طعــام وشراب، الطعام والشراب مقابل السمك المجفف، لا يطلب الرجل منهم أكــثر من ذلك، وليس لديه استعداد للخوض في أية أمور أخرى، حتى عملية

المقايضـــة ذاتهـــا لا تستغرق كثيراً من الوقت، فالرجل يعرف تماماً ما يريد، وهم أيضاً يعرفون ما يريدون.

* * *

عشـــتان، إحداهمـــا على جزيرة صنافر، والأخرى على جزيرة تيران، والـــرجل يقـــيم في العشة الأولى طوال الأسبوع، فيما عدا ليلة الخميس التي يقضـــيها في عشة تيران، يقطع المسافة بينهما سباحة، شوهد أكثر من مرة وهـــو يســـبح من جزيرة لأخرى، مخترقاً أخطر ما في البحر، بركة القروش، يســـبح عارياً، ويعود عارياً، وهو ما يشير إلى أنه يحتفظ في العشة الأخرى ببعض الثياب، يفعل ذلك صيفاً وشتاء، لا يمنعه البرد من سباحته الأسبوعية، ولا تحول القروش بينه وبين وصوله إلى غايته.

قلـــيل مـــن الصـــيادين من واتته الجرأة على الدخول إلى عشة تيران لاســـتطلاع ما بداخلها، فعل بعضهم ذلك في الأيام التي يكون الرجل بالجزيرة الأخـــرى، وأكدوا جميعاً أن العشة خالية تماماً إلا من بعض الرماد الذي يشير إلـــى إشـــعال النار في أحد الأركان، لا أثر على الإطلاق لوجود ساكن للعشة، إنســـياً كـــان أم جنـــياً، بل أن من دخلوا العشة لم تواتهم الجرأة على البقاء فـــيها طويـــلاً، كـــانوا يلقون بنظرة سريعة داخلها ثم يهرولون إلى الخارج، كلهـــم أجمعـــوا علـــى أنهم بمجرد ولوجهم إلى العشة كانوا يشعرون أن ثمة عـــيوناً ترقـــبهم من مكان ما، وأن رعشة كانت تسري من أقدامهم إلى شعر رؤوسهم.

وأكثر من ذلك فإن كل من تجرأ على الدخول إلى العشة كان ينال عقابه فـــي غضـــون ثلاثة أيام فقط من فعلته، كأن يفقد عزيزاً، أو أن يتحطم قاربه

علـــى رؤوس بعــض الشـــعاب المرجانية، أو أن تهب عليه الشرو[1] فينقلب قاربـــه في الماء بما يحمله من صيد، العقاب جاهز دائماً، وينفذ سريعاً بمجرد أن تقع الجريمة، جريمة التطفل على العشة أو حتى مجرد التلصص عليها.

تلــك أمـــور حســـمت منذ وقت طويل، حتى أن تصرفات الرجل لم تعد مؤخـــراً تثـــير دهشـــة أو تساؤلاً من أحد، فقد قبل الصيادون أن يتعاملوا مع الـــرجل كمـــا هو، قبلوا أن يتحدثوا معه بالإشارة في أغلب الأحيان، أو بقليل جداً من الكلام في أحيان أخرى، لم يعد أحد منهم يحاول استدراج الرجل لكي يسترســـل في الكلام، أو حتى أن يبوح باسمه، هم اعتادوا على ذلك في نهاية الأمـــر، ولم يعد الرجل يمثل بالنسبة لهم غموضاً أو أمراً مثيراً للدهشة، حتى ســـباحته الأسبوعية بين جزيرتي صنافر وتيران لم تعد تثير فيهم أي دهشة، اعـــتادوا على رؤيته يسبح مخترقاً بركة القروش بعد ظهر الخميس، ثم على رؤيـــته وهـــو يسبح عائداً بعد ظهر الجمعة، كانوا يستغربون في البداية من عـــدم تحرش القروش به، ولكن في النهاية لم يعد ذلك يدهشهم كثيراً، تعلموا أن يبـــتلعوا دهشتهم، وأن يتعاملوا مع الرجل باعتباره مصدراً لا ينفد للسمك الناشـــف، الـــذي يحصلون عليه منه بثمن بخس، مجرد مقايضة يربحون من ورائهـــا الكثـــير، حـــتى أن بعض الصيادين أراحوا أنفسهم من عناء الصيد، واكـــتفوا بمـــا يحصلون عليه من الرجل من أسماك مجففة كمصدر وحيد لهم للربح.

أمـــا قصـــة عشـــقه أو قصة زواجه من حورية جميلة، يلتقي بها يوماً

---

[1] الشرو : رياح عاتية تهب من الشمال إلى الجنوب .

واحـداً فـي الأسبوع في تلك العشة بجزيرة تيران، فلم تعد هي الأخرى تثير اهـتمامهم كثـيراً، فقـد أجهـدوا أنفسهم كثيراً في محاولة تحري هذا الأمر ولكـنهم لـم يصلوا إلى شيء، فلم يسبق لأي منهم أن رأى تلك الحورية في الجوار، كما أن الصيادين الذين خاطروا بدخول العشة، أثناء غياب الرجل، لم يجـدوا بداخلهـا أثـراً للحورية، حتى الذين يؤكدون وجود علاقة عشق بين الـرجل والحوريـة ينقلون قولهم عن آخرين، أما هم فلا يملكون دليلاً مؤكداً على ذلك.

أمـا شـيوخ الصـيادين، الذين هجروا الصيد بعد أن تقدم بهم العمر، والذيـن يفترض أنهم يعرفون أكثر عن أسرار البحر فقد عجزوا بدورهم عن تقديـم أية إجابة شافية لتساؤلات الشباب، يكتفي الشيوخ فقط بتحذير الشباب مـن الاقـتراب مـن العشة، بل أن بعضهم يفرط في تحذيره لدرجة تخويف الشـباب من مجرد اتخاذ الرجل موضوعاً للنميمة بينهم، ولعل الشيخ لطيف، هـو أكـثر شـيوخ الصـيادين تحذيراً للشباب من مغبة ذلك، إذ يقول الشيخ لطـيف: إن للـبحر أسـراراً لا يبوح بها لأحد، وأن أي محاولة لكشف هذه الأسرار عنوة ستعود على صاحبها بما لا تحمد عقباه. قال الشيخ لطيف ذلك مـراراً، وأعـاد قولـه للصياد الشاب الذي جاء ليخبره بأنه شاهد بأم عينيه القروش وهي تفترس الرجل وهو عائد من جزيرة تيران، حدث ذلك بعد ظهر يـوم الجمعة، ولكن على عكس ما توقع الشاب، فإن الشيخ لطيف لم يندهش كثيراً، بل عاد من جديد ليحذر الشاب من الخوض في مثل هذه الأمور.

وعلـى أية حال يبدو أن ما قاله الشاب للشيخ لطيف كان صحيحاً.. فقد أكـده صـيادون آخرون.. قالوا هم أيضاً أنهم شاهدوا القروش وهي تفترس

الـــرجل.. ورد علـــيهم الشيخ لطيف بنفس التحذير.. إياكم والخوض في مثل هـــذه الأمـــور.. ولكن يبدو أن الشيخ لطيف أراد أن يغتنم ما جرى للرجل كي يغلق هذا الملف إلى الأبد.. فلم يكتف هذه المرة بمجرد التحذير.. بل قال لهم: عودوا إلى البحر غداً.. ستجدون رجلاً آخر يجول بقاربه.. وستجدون القارب عامـــراً بالســـمك الناشف.. سوف تستمر الدورة.. دورة العشق.. لن ينقطع عشـــاق الحوريـــة.. ســـيكون هناك دائماً عاشق.. يبيع لكم السمك الناشف.. ويســـبح عارياً بين الجزيرتين.. لكي يلتقي عشيقته.. التي ستبادله العشق.. فإذا فتر عشقه لها.. استبدلته على الفور بعاشق جديد.

وهل تعرفون بحراً آخر ؟

أمــا هــذا الــرجل فــيكاد أن يكون مقيماً في مرسى القوارب.. يعرفه الصــيادون.. ويعرفه عساكر نقطة الحدود.. بل ويسمحون له بالجلوس على الدكــة.. التي يرى في أغلب الأحيان جالساً عليها.. مستنداً بظهره إلى جدار الــنقطة، ومــتجهاً بعينيه صوب جزر الفنادير.. التي تبدو واضحة للعيان في أي ساعة من ساعات النهار.

وعــندما تهب الريح أو يشتد البرد، يدعوه العساكر للدخول إلى النقطة ذاتهــا، دون أي خــوف مــن الملازم، الذي يزور النقطة من وقت لآخر لكي يــتفقد العمــل أو يوقــع على تصاريح الصيد، فالملازم لم يعترض أبداً على وجــوده بالــنقطة، بــل كثيراً ما يداعبه أو يمازحه، ولا ينصرف إلا بعد أن يوصــي العساكر بأن يشركوه في طعامهم وشرابهم، في حالات قليلة فقط كان العســاكر يطلــبون مــنه أن يخرج من النقطة، وأن يجلس بعيداً، يحدث ذلك عــندما يأتي العقيد، الذي يزور النقطة مرتين في الشهر، لكي يجري التفتيش على ملف التصاريح.

عســاكر الــنقطة يحصلون على السمك مجاناً من الصيادين، كل صياد يرســو بقاربــه يهديهــم كــيلوجراماً أو اثنين من الأسماك الطازجة، ويقبل العســاكر الهديــة باعتبارها حلاوة السلامة، بعد يوم أو اثنين من الغياب في الــبحر، ولا ينتهي اليوم حتى تكون نقطة الحدود قد تكدست بالأسماك، يتناول العساكر منها ما يحتاجونه، ويجمدون الباقي في براد كبير.

أمـــا هـــو فيـــبقى في مكانه هذا طول النهار، من الصباح الباكر وحتى مغيب الشمس، حين يغلق العساكر المرسى في وجه القوارب العائدة، التي لا يســـمحون لهـــا بدخول المرسى إلا خلال ساعات النهار، حينئذ ينهض الرجل مـــن فـــوق الدكة، ويولي وجهه صوب النجع، حاملاً نصيبه من صيد اليوم، الذي يهديه إياه الصيادون أو العساكر.

يفعـــل الرجل ذلك منذ أكثر من عشر سنوات، لم يتخلف عن ذلك خلالها ســـوى بضـــعة أيام متقطعة، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وعندما يأتي في الـــيوم التالـــي، يسأله العساكر والصيادون عن سبب تخلفه بالأمس، فيجيبهم بأنـــه كان مريضاً، وأنه لن يتغيب مرة أخرى حتى يكون في استقبال إبراهيم عـــند عودتـــه، هو يعرف إلى حد اليقين أن إبراهيم سيعود ذات يوم، في ذات القارب الذي رحل به منذ عشر سنوات.

* * *

بدأت القصة بمجرد عبث، عبث أطفال لا أكثر، فالصبي إبراهيم الذي لم يتجاوز عمره الخامسة عشرة، والذي رافق أباه عدة مرات في رحلات صيد، غالـــباً أثـــناء إجـــازة المـــدارس، فكر في أن يستمتع بنزهة بحرية مع أحد أصدقائه، صبي آخر يقاربه في السن، لم يعرض إبراهيم الفكرة على أبيه، إذ كـــان يدرك جيداً أن أباه سيرفضها تماماً، فإبراهيم لم يكن لديه الخبرة الكافية بشـــئون الـــبحر، ولم يكن على دراية بمواقع الشعاب المرجانية، التي تختبئ رؤوســـها بالقـــرب من سطح الماء، وهي كفيلة بتحطيم أي قارب مهما كانت متانـــته بمجرد الاصطدام بها، ناهيك عن أن عساكر النقطة لن يسمحوا لصبي فـــي عمره بالإبحار بالقارب دون مرافق كبير، فتلك مخالفة صريحة لقوانين

الصيد، لا يستطيع العساكر أن يتغاضوا عنها تحت أي ظرف من الظروف .

ولكـــن الصبي المراهق لم يعبأ كثيراً بذلك، فقد اغتنم فرصة غياب أبيه فـــي ســـفرية تستغرق ثلاثة أيام إلى مقام الشيخ الشاذلي في الجنوب، وهي ســـفرية يحرص عليها الرجل في مولد الشيخ كل عام، ولم يتبق أمام الصبي ســـوى عقبة واحدة، وهي عساكر النقطة، ورأى الصبي أن تلك العقبة يمكن تذلـــيلها، وأن بإمكانـــه مغافلـــة العســـاكر، فالعساكر لا يتواجدون دائماً على الســـاحل، بـــل كثـــيراً مـــا يقضـــون وقتهم داخل النقطة ذاتها، يثرثرون، أو يتناولون الطعام، مطمئنين إلى أن الأمور تسير على ما يرام في الخارج، وأن قاربـــاً واحـــداً مـــن القوارب الكثيرة التي ترسو على الشاطئ لن يجرؤ على الإبحار خلسة.

ولقد كان الصبي محقاً في ذلك، ونجح بالفعل في التسلل إلى القارب هو ورفيقه دون أن ينتبه إليهما عساكر النقطة، ساعدهم في ذلك أن القارب كان يرســـو بعـــيداً عـــن النقطة، وأن قوارب عديدة أخرى كانت تقف حائلاً بينهم وبيـــن النقطة، فخاض الصبيان في المياه بحذر شديد، حتى بلغا القارب، وقبل أن يصـــعدا إلـــى القارب، ألقيا نظرة على نقطة الحدود، فلم لم يجدا أحداً من العســـاكر خارجها، تشبثا بالقارب، وصعدا إليه، وقام أحدهما بجذب المرساة، ثم شرعا في التجديف صوب الباحة[١].

عندما بلغا الباحة كان قد أجهدا من التجديف، ولكن لم يكن بمقدورهما أن يـــتوقفا لحظة واحدة عن استخدام المجاديف، تلك مخاطرة يعرفها كل من

[1] الباحة : المياه العميقة .

ارتـــاد الـــبحر، التوقف عن التجديف يعني أن يستحيل القارب ريشة في مهب الـــريح، ريشة تتلاعب بها الأمواج والرياح، تدفعها إلى حيث تشاء، والنهاية معـــروفة، أن يـــتحطم القارب فوق أقرب رأس من رؤوس الشعاب المرجانية التي يعج بها البحر، والتي لا يعرف الصبيان موقعها على وجه التحديد.

مـــن هـــنا اخـــتار الصبيان أن يرفعا الشراع، فازدادت سرعة القارب، واتجهت مقدمته صوب الشمال، لم يكن الصبيان يدركان أن رفع الشراع يعني أنهمـــا يتركان القيادة للرياح، تتحكم في توجيه القارب كما تشاء، خاصة مع وجود صبيين يجهلان فنون المناورة بالشراع، وفي تلك اللحظة بالذات خرج أحد العساكر من النقطة ولمح القارب في عرض البحر، وأدرك أن قارباً غادر المرســـى خلســـة، وأن الأمر قد يكون متعلقاً بجلب الممنوعات، فقام العساكر بـــإبلاغ الملازم، الذي قام بدوره بإبلاغ العقيد، وتم إرسال إشارة عاجلة لخفر السواحل لضبط القارب في عرض البحر.

* * *

مـــن يركـــب الـــبحر يركـــب الـــرياح، تلـــك حقيقة يعرفها الصيادون المخضـــرمون، لا يمكنك أن تتجاهل الريح، لا تهبط البحر قبل أن تحفظ دورة الـــرياح عـــن ظهر قلب، فالريح وحدها صاحبة الكلمة هناك، عليك أن تكون خبيراً بأنواع الرياح، وكيف تتناوب، عليك أن تعرف أن رياح الأزيب القادمة من الجنوب، سوف تعقبها رياح الشرو العاتية القادمة من الشمال، وعليك أن تفهـــم أن ريـــاح الشرش القادمة من الغرب، هي مجرد مقدمة لهبوب نسائم الردود الرقيقة القادمة من الشرق، عليك أن تتعلم ذلك قبل أن تخاطر بالإبحار بقاربك.

وهــذا علـــى وجه التحديد ما لم يكن الصبيان المراهقان يعرفانه جيداً، فقــد أبحرا، وخاطرا برفع الأشرعة في وقت كانت رياح الأزيب الجنوبية تلفظ أنفاســها، وكانــت رياح الشرو العاتية القادمة من الشمال تتأهب للانقضاض علــيها، لا عجــب إذن، والأمــر كذلك، أن زورق خفر السواحل، الذي تلقى الإشـــارة ثم تلكأ في التحرك، لم يعثر على أي أثر للقارب، رغم قيامه بمسح المنطقة في دائرة لا يقل قطرها عن عشرة كيلومترات، شملت سواحل جزيرة شدوان وجفتون الفنادير.

بعــد ثلاثـــة أيام ألقى البحر إلى الشاطئ ببعض قطع من حطام القارب، انتشــلها بعــض الصيادين إلى الجنوب من المرسى ببضعة كيلومترات، وكان هــذا أمــراً طبيعياً في ظل هبوب الشرو، وعندما تم استدعاء أبي إبراهيم أقر بـــأن هــذا الحطام هو لقاربه، وبعد خمسة أيام ظهرت جثة واحدة، ألقى بها البحر بالقرب من نفس المكان الذي عثروا فيه على الحطام، وكشفت المعاينة أن الجثة للصبي الآخر.

مـــنذ ذلك الحين والرجل يأتي إلى المرسى كل صباح، ويقبع في مكانه، مـــتجهاً بـــناظريه صوب البحر، يجلس صامتاً كأنه أخرس، فيحاول العساكر ممازحـــته، ولكـــنه نـــادراً مـــا يستجيب للممازحة، بل يكتفي حيناً بالابتسام، ويقطب جبينه حيناً آخر، وعندما يقترب أحد الصيادين من النقطة، كي يسجل اســـمه قبل الإبحار، يرفع الرجل عينيه ويرمقه بنظرة ذات مغزى، وغالباً ما يفهـــم الصياد مغزى النظرة، فيومئ برأسه، وهي إشارة من الصياد على أنه ســـيبحث عـــن إبراهـــيم، وأنه سيأتي به بمجرد أن يصادفه في مكان ما من البحر.

يـــتقاطر الصـــيادون مـــنذ الصـــباح الباكر على نقطة الحدود لتسجيل أســـمائهم، ويـــرمقهم الرجل جميعاً بذات النظرة، فيعدونه جميعاً بالبحث عن إبراهيم أثناء وجودهم في البحر، ثم يبحر الصيادون، ويبدأ أغلبهم في العودة إلـــى المرسى قبيل المغرب، بينما يقضى بعضهم ليلته في البحر حتى الصباح، ثـــم يعـــودون في اليوم التالي، ليقدموا للرجل نفس الاعتذار الذي يسمعه من سنوات: لم نجد إبراهيم.. ربما نعثر عليه غداً إن شاء الله.

تمضي الأيام والسنين والرجل لا يزال متشبثاً بأن إبراهيم لا يزال حياً.. وأن صـــياداً ســـيعثر عليه ذات يوم.. قال الرجل ذلك صراحة أكثر من مرة.. قالها في تلك المرات القليلة التي كان يتخلى فيها عن صمته.. قال أنه أكثرهم دراية بالبحر.. وأنه يعرف البحر أكثر من أي شخص آخر.. البحر قد يغدر.. وقـــد يقـــتل.. ولكنه سرعان ما يعتذر عن فعلته بأن يلقي بجثث ضحاياه إلى الشـــاطئ.. هذا هو البحر الذي أعرفه.. فهل تعرفون بحراً آخر.. يقولها.. ثم يعـــود إلـــى صـــمته.. ويلقي بعينيه بعيداً في البحر.. بعيداً جداً.. صوب آخر موجة تتراءى له من بعيد.

الفهرس

الصفحة

١- العودة إلى جوبال.................................... ٥

٢- زيارة الدبرغط ١٥

٣- واقعة اختفاء عودة الرشندي ٢٥

٤- الرقصة الأخيرة للبعوة ٣٥

٥- العرجاء ٤٧

٦- صابغ أذنيه بالدم ٥٥

٧- وهو أيضاً يحب عرائس البحر ٦٣

٨- العشة الأخرى ٧٥

٩- وهل تعرفون بحراً آخر ؟ ٨٧

إصدارات

نفرو للنشر والتوزيع

اسم الكتاب	المؤلف
العودة إلى جوبال	سعيد رفيع
قراء القرآن ونوادرهم	حزين عمر
حروف متشابكة	حياة الحضرى
البربونى يتجه شرقاً	سعيد رفيع
باب البحر	عبد الله السيد
الملاح الطائر - (ترجمة د./محسن عباس)	أميري بركة
العبد - (ترجمة د./محسن عباس)	أميري بركة
ونس	محمد الحسينى
عباد الضل	محمد الحسينى
ذات الهمة (أربعة أجزاء)	عبد الله السيد
صندوق الحزن	محمد الحسينى
طفل الفجر - (ترجمة / ظبية خميس)	جوتاما شوبرا
غرفة السر	محمد الحسينى